# الباب الثانى

## أنا.. والسادات

# الفصل الأول

## السادات ..ومانشيت «الأمم المتحدة تركع»

فى هذه الأيام الذهبية كان مصطفى أمين صاحب الدار يعقد اجتماعا أسبوعيا صباح كل يوم جمعة بقاعة الاجتماعات بالدور التاسـع حيث يوجد مكتبه ومكتب توأمه على أمين. وفى هذا الاجتماع الذى يستمر لأكثر من سبع أو ثمانى ساعات تجرى مناقشة كل القضايا المطروحة.. الكل يتحدث ويشارك فى المناقشات. ومصطفى أمين يقود الحوار ويشجع عليه ويمسك الخيط دائما ليحكى ويرشد ويعلم ويرعى ويصقل.

وخلال الاجتماع تتناثر الأسرار.

ولأنه صاحب «الأخبار» هو وتوأمه؛ فإنه يسعى لزيادة التوزيع ولا تتحقق زيادة التوزيع إلا بتقديـم مادة صحفية تجذب القراء وتربطهم بالجريدة.. وهذه المادة لا يمكن أن يقدمها إلا صحفيون متميزون وكتاب لهم باع فى الكتابة ولهم من النجومية ما يؤهلهم لإقبال القراء على قراءتهم.

وقد عملت الأخبار كمدرسة لتفريخ الموهوبين وفتح الأبواب أمامهم.

وكانت سـبل صناعة النجوم كثيرة ومن بينها السفر إلى الخارج سواء للعمل أو للدراسة أو التدريب. ولقد أوفدت الأخبار الأستاذ محمد حسنين هيكل إلى اليابان وكوريا وفلسطين والولايات المتحدة حيث تابع معارك ١٩٤٨م فى فلسـطين واليابان بعد استسلامها وكوريا أثنـاء انفجار الموقف بـين الكوريتين. كما أتاحت لأنيس منصور السـفر حول العالم وجاء كتابـه حـول العالم فى ٢٠٠ يـوم، ليكون فى مقدمة الكتب الأكثر مبيعـا باللغة العربية. وبجانـب هيكل وأنيس هناك المئات من الزملاء ولكن قبـل الانطلاق هناك عمليات انتقاء للمواهـب وكان اجتماع الجمعة مجالا لاكتشـاف البعض.. كما كانت ولائم العشـاء التى يقيمها مصطفى أمين مساء أيام الأحد والأربعاء إذا ما كانت ظروفه تسمح بذلك ميدانا آخر وقد دأب على دعوة اثنين من الصحفيين الجدد كل مرة.

خـلال هـذه الدعوات يلتقى الزميـلان بنجوم المجتمع فى السياسـة والصحافة والفن

والأدب.. وتتقارب المســافات وفــى مثل هذا المناخ المتميز تجرى إزاحة الســتار عن كثير من الأســرار وكان المجال الثانى لمعرفة المزيد منها خلال سهرات كامل الشناوى سواء فى كافيتريا «نايت أند داى» بفندق سميراميس أو بكافيتريا «ابيس» بفندق هيلتون.

وكنت قد بدأت طريقى إلى هذه السهرات بصحبة صديق العمر إسماعيل النقيب.. ولأن هذه السهرات كانت تستمر حتى ساعات الصباح الأولى كان الوقت المتاح لى للنوم محدودا جدا. فقد كان مطلوبا أن أحضر اجتماع قســم الأخبار بجريدة الأخبار فى الســاعة التاسعة صباحا.

وبعــد مــا يقرب من عامين تركت هذه الحياة الليليــة الجميلة والمخملية وهذه الصحبة التى لا نظير لها فى ظُرفها وثقافتها وكرمها وإنســانيتها. كنت أعلم أننى سأخســر فرصة للاقتراب من الأسرار التى تدور فى الشارع الخلفى للحكم. ولكنى كنت فى شوق للعودة إلى مقعد الدراسة بحثا عن معارف جديدة أكثر عمقا وشمولا وتخصصا.

أما الميدان الثالث للمعلومات والأســرار وهو الأهم فــكان من خلال صداقاتى وعلاقاتى التى توطدت بعدد كبير من قادة القوات المسلحة بحكم مسئوليتى عن القطاع العسكرى.

وكان من بين المعلومات التى كشــفت عنها الأحــداث المرتبطة بليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م والتــى جــرى ترديدها وتقييم أبطالها أكثر من مرة ما فعله جمــال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر وأنور السادات.

فقد ركب ناصر وعامر ســيارة ناصر الأوستن السوداء وهما يرتديان زيهما المدنى.. وظلا يجوبان الشوارع حتى بدأت القوات المشاركة فى الانقلاب تتحرك وتصل إلى مصر الجديدة.. وهناك ألقت قوات كتيبة المقدم يوسف صديق القبض عليهما.. وتوالت الأحداث.

أما أنور الســادات، فقد اصطحب زوجته الى ســينما صيفى بشــارع المنيل.. وبداخل السينما تشاجر مع أحد المتفرجين وتوجه معه إلى نقطة المنيل لتسجيل الواقعة فى محضر، وكان تقييم جميع من شاركوا فى الحديث حول هذه القضية فى كل دوائر المعلومات التى اقتربــت منهــا، أن هؤلاء الثلاثة هم الأكثر ذكاء، خاصة أنور الســادات؛ ففيما لو فشــل الانقلاب، فلديهم جميعا أعذار تثبت عدم انغماسهم فيه.

وكانت هناك معلومات يجرى تداولها همسا وكلها تدور حول أنور السادات وأسلوبه فى

التعامل مع الرئيس عبدالناصر فقد قرأ السادات شخصية الرجل.. وتأكد أنه يحب الانفراد بالأمر ولا يقبل شريكا تحت أى مسمى. فاختار الابتعاد والتظاهر بعدم الرغبة فى السلطة. ولاستكمال هذه الصورة كان يتردد دائما على النادى الأهلى ليلتقى بمجموعة من الأصدقاء فى مقدمتهم صديقه الدكتور رشاد رشدى.

وتعلم من رشـاد رشـدى وضع مناديل حريرية فى أكمام السترات التى يرتديها، وبما يوحى أنه غارق فى الحياة الناعمة.. فمثل هذه المعلومات والتى فتحت الباب لكى يستنتج البعـض من الأصدقاء أن الرجل يعمل بكل همة ليظـل بجوار عبدالناصر على القمة راضيا بالظل ومبتعدا عن بؤرة الضوء إلى أن تحين اللحظة التى يرث فيها موقعه. كما أنه عمل بلا كلـل للوقيعة بين عبدالناصر ومعظم أعضاء المجموعة اليوليوية بما فيهم عبدالحكيم عامر. عملاً بالقاعدة التى تؤكد أن الثورات تأكل بنيها.

وقد نجح فى ذلك بامتياز.. وأضاف إلى ذلك كرم الضيافة.. وكثيرا ما كان يدعو الرئيس عبدالناصـر لتناول الطعـام فى بيته بحضور زوجته وابنه وبناتـه.. وبذل جهودا طيبة هو وزوجته من أجل أن يقضى الرئيس وقتا طيبا دائما.

ومثل هذه الأوقات وافقت هوى الضيف الكبير الذى وجد فى زوجة السـادات الصحبة الجميلـة. فهى حـكاءة جيدة.. وتجيد الحديث دائما.. وتعـرف كيف تختار الموضوعات وتنتقى الكلمات المناسـبة والأهم تعرف كيف تتكلم أمام عبدالناصر وكيف تسـتحوذ على أذنه واهتمامه.

هذه السيدة البارعة الجميلة، تمكنت بحسن الضيافة والحديث أن تجعل من بيتها واحة بالنسبة لعبدالناصر المرهق بالعمل وبالمسئوليات وبالأزمات والصراعات التى لا تنتهى، فى بيتها كان ينسـى كل ذلك ويسـعد بقضاء وقت طيب ولأن بعـض أعضاء المجموعة كانوا ضيوفـا فـى بعض الأحيان مع عبدالناصر فقد أتيحت لهم الفرصة ليدركوا مدى إحسـاس عبدالناصر بالراحة والاسـتمتاع بالوقت.. وبصورة أخرى كان يرتاح من القضايا السياسـية وضغـوط الصراعات والأزمات على شـاطئها وعلى أمواج صوتهـا وأحاديثها وكان آخر من تحدثـت معه حول هذا الأمر عبداللطيف بغـدادى العضو البارز بالمجموعة اليوليوية أثناء وجوده بمستشفى بمدينة فيسبادن الألمانية فى منتصف تسعينيات القرن الماضى حينما كنت

أزوره. وفى مرات كثيرة كنت بصحبة العميد بحرى شيرين حسن الملحق الحربى المصرى بألمانيا والدكتور أحمد السجاعى أحد أشهر جراحى التجميل فى العالم وعميد الجالية المصرية بألمانيا. كان الحوار يدور دائما حول ٢٣ يوليو ومصر.. وعندما يتطرق الحديث عن أنور السادات وتردد جمال عبدالناصر على منزله.. كان يشيد بالسيدة جيهان وقدراتها وبراعتها.. ويؤكد أن عبدالناصر كان يحب أن يقضى الكثير من الوقت هناك وقال إن عبدالناصر كان يصف الضيافة بقوله إنها تفعل كل شىء بشياكة ويردد دائما «إن قعدتها حلوة».

وقد أسهمت بصورة فعالة فى إعادة السادات إلى موقعه كنائب لرئيس الجمهورية بعد أن أمره عبدالناصر أن يلزم منزله. وتبدأ القصة عندما نال قصر يطل على شارع الهرم فى مواجهة البوابة الرئيسية لأكاديمية الفنون إعجابه وكان اللواء المهندس الموجى قد اشتراه من ملاكه وبدأ فى إعداده للانتقال إليه.. ولأن عبد الناصر كان فى الاتحاد السوفيتى للعلاج فى مصحة «تسخا لطويو»، فقد استغل السادات الظروف وأصدر قرارا للاستحواذ على القصر.

ولم يهدأ المالك.. واشتكى لكل الأطراف حتى وصلت شكواه إلى الرئيس فى الاتحاد السوفيتى. وتقررت عودة الرئيس وبعد أن هبط سلم الطائرة فى مطار القاهرة وجد السادات فى مقدمة المستقبلين باعتباره نائبا لرئيس الجمهورية فقال له بصوت مرتفع: «أنت باين عليك عيان قوى. روح استريح فى ميت أبوالكوم». وأمر بإعادة القصر إلى صاحبه ونفذ السادات أمر الإبعاد فى صمت ودون مناقشة وكل ما قاله «حاضر يا فندم». وبعد فترة تلقى الرئيس اتصالا تليفونيا من بيت السادات لدعوته لتناول طعام الغداء أثناء توجهه بالسيارة إلى الإسكندرية ولبى عبدالناصر الدعوة وقبل أن يغادر قال للسادات «تقدر ترجع مكتبك» وكان أول واجب رسمى له استقبال «لى كوان يو» رئيس سنغافورة وبهذا أكد للجميع أنه يمارس مسئولياته كنائب لرئيس الجمهورية.

وبعد أسابيع رحل عبدالناصر عن عالمنا.. ومن قلب الصراع على السلطة وقتذاك انتصر معسكر الشرعية؛ أى أن يحل النائب محل الرئيس وأصبح السادات رئيسا للجمهورية وفقا للقواعد التى نص عليها الدستور.

وأثناء تحمله لمسئولياته كرئيس لمجلس الأمة تلقيت دعوة من الدكتور رشاد رشدى لتناول قدح من الشاى معه بالنادى الأهلى. وأخبرنى أن السادات سيكون موجودا. وكان يسيرا أن أستنتج أن السادات هو صاحب الدعوة.. وبدأت أستعيد ما سمعته وعرفته عن الرجل وما يتمتع به من ذكاء ومكر بالإضافة إلى دوره فى الحركة الوطنية المصرية واشتراكه فى عملية اغتيال أمين عثمان وزير المالية المصرى عقابا له على وصفه معاهدة ١٩٣٦م بأنها كالزواج الكاثوليكى بين مصر وبريطانيا أى علاقة لاتعرف الانفصال وكان التصريح صدمة للقوى الوطنية التى ترفض الاحتلال وتطالب بالجلاء. وانخراط الرجل فى العمل السرى لسنوات طويلة بجانب نشاطه فى التعاون مع شبكة «ابلر» الألمانية المعروفة بقضية «العوامة» يضاعف من حالة التحسب فى التعامل معه. وكان هناك موقفان أو واقعتان: فقد كنت موجودا خلف عبدالناصر والمشير عامر فى تلك المناورة التى تمت بمدينة العريش وعرف أننى سمعت ما قاله عامر. والثانية: عندما رآنى ضيفا على المشير عامر باستراحة الهرم.. وعندما وصل السادات واشترك فى الحوار مع كل من عباس رضوان وصلاح نصر رأيت أن الوقت قد حان للمغادرة.

لقد طلب المشير حضورى ليسر إلى بخبر طلب أن أنشره دون أن أنسبه إليه ودون أن أخبر أحدا أنه مصدره. فوعدته. ونشرت الخبر فعلا وسألنى الدكتور رشاد رشدى عن زياراتى لليمن وانطباعاتى.. فبدأت أحكى وأنا أضع فى اعتبارى أن السادات كان له دور رئيسى فى الأحداث.

وبعد فترة تدخل السادات لأول مرة فى الحديث مستغربا ما قلته من إننى شربت مع غيرى الماء بالدود بعيدا عن صنعاء العاصمة.. وأن البسكويت الذى يصرف للقوات مسكون بالسوس.

وطلب أن يسمع المزيد عن تجربتى وبصورة تبدو وكأنها فى سياق الحديث سألنى عما إذا كنت قد أخبرت عبدالحكيم عامر بما رأيت.. فأجبته بأنه لم يسألنى أبدا عن اليمن.. وبالتالى لم تكن هناك فرصة لكى أحكى له.. ثم إننى أعرف تماما أن أجهزة جمع المعلومات تطلعه أولا بأول على حقائق الأوضاع هناك.

وبدا أن إجابتى لم تكن على هواه.. فانتقل بالحديث عن الصحافة.. فسألته باعتباره مسئولا كبيرا سبق أن مارس المهنة وارتبط بعلاقات وثيقة بعدد كبير من كبار الصحفيين

والكتاب: كيف ينظر للقيادات التى تحملت المسئولية فى دور الصحف بعد التأميم؟

فسألنى من أقصد بالتحديد؟ فأجبته بأننى سأحكى واقعة واحدة عاصرتها مع جيلى وهو الجيل الأحدث بالصحافة من باقى الأجيال. وقلت له: بعد الانتهاء من كتابة المانشيت والعناوين الرئيسية كان على الأستاذ أحمد لطفى حسونة نائب رئيس التحرير المسئول أن يتوجه لمكتب كمال رفعت رئيس مجلس الإدارة.. وكالمعتاد لم يكن الرجل موجودا لأنه كان يتحمل مسئولية وزير العمل فى الوقت نفسه بجانب مسئولياته الأخرى ولم يكن مدير مكتبه الرائد على إسماعيل الإمبابى موجودا أيضا؛ لأنه حريص على أن يكون بصحبة الوزير.. وكان الموجود هو «الصول» أحمد زكى.

كانت كلمات المانشيت «الأمم المتحدة تركع» فقرأ الصول المانشيت وسأل الأستاذ حسونة: يعنى إيه تركع؟

ولم يفهم نائب رئيس التحرير السؤال وبالتالى لم يعرف ماذا يقول؟

وسأل نفسه: ألا يعرف الصول معنى كلمة تركع؟ أم أنه لا يعرف ما هى الأمم المتحدة؟ فأعاد الرجل الجالس على مقعد المسئولية الصول أحمد زكى السؤال. يعنى إيه تركع يا أستاذ أحمد؟

فقال له: أرجو من سيادتك الاتصال بكمال بك رفعت وإبلاغه بالمانشيت وسؤاله عما إذا كان سيوافق أم سيطلب اختيار مانشيت آخر؟.

فقال له الصول: يا أستاذ أحمد أنا الرجل المسئول هنا بمكتب رئيس مجلس الإدارة.. وأنا المفوض بالموافقة على كل ما ينشر بالجريدة.. ثم واصل قائلا «أنا عايز أفهم يعنى إيه تركع»؟

فلم يجد الأستاذ حسونة مفرا من أن يقوم بالركوع بلا صلاة وقال له. الركوع هكذا يا أحمد بك.

فضحك أحمد بك كثيرا ووصل إلى حد القهقهة.. وطلب منه أن يشاهد الركوع مرة أخرى وكرر الأستاذ حسونة الركوع فقال له الصول هايل «أنا دلوقتى فهمت».

فسأله الأستاذ حسونة من بين الدموع التى سالت من عينيه: يعنى سيادتك موافق على المانشيت؟ فقال له نعم. فطلب منه التوقيع بالموافقة فوقع وعاد الرجل إلينا فى صالة التحرير وكل مظاهر التعاسة بادية عليه. فسألناه. فحكى لنا ماجرى.

وأصيب الحاضرون بالوجوم.. ولم أستطع أن أمنع دموعى وفشلت فى السيطرة على الانفعال الذى اعترانى. وسألنى السادات بجدية هل هذه القصة حقيقية وليست فيها مبالغات؟ فأكدت له إنها حقيقية. وقلت سيادتك تستطيع أن تستوثق منها من مصادرك. فقال: سأطلع الرئيس عبدالناصر وأعتقد أنه لا يمكن أن يرضى أو يقبل بما تعرض له الأستاذ حسونة. ثم سألنى عما إذا كنت على استعداد لأن أحكيها مرة أخرى أمام سيادة الرئيس؟ فقلت بتلقائية إننى على استعداد لأن أحكيها أمام محكمة العدل الدولية لو طلب منى ذلك.

❑❑❑

# الفصل الثانى

## السادات يجتاز جسرا من الانقلابات

انفجر الصراع على السلطة بصورة غير مسبوقة فى نفس يوم نجاح المجموعة اليوليوية فى الوثوب إلى قمة السلطة صباح يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢م.

وبدأت المرحلة الأولى. بالصراع بين أفراد المجموعة، وسقط الرئيس محمد نجيب أول رئيس جمهورية فى مصر خلال الجولات الأولى، وتم تحديد إقامته فى منطقة المرج بالقرب من القاهرة.. وتوالى سقوط أعضاء المجموعة واحدا وراء الآخر عبر سلسلة من المؤامرات وعمليات الغدر.. واختفت أسماء منها يوسف صديق وكمال الدين حسين وجمال سالم وصلاح سالم وعبداللطيف البغدادى وزكريا محيى الدين وخالد محيى الدين. وبعد السنوات التى تمكن فيها عبدالناصر من بناء شعبيته وزعامته لم يبق بجواره سوى عبدالحكيم عامر وأنور السادات وحسين الشافعى.

وهذه المجموعة المحدودة هى التى تمكنت من تجاوز الصراعات والمحاولات الانقلابية التى كانت تتم بمعدل انقلاب كل ستة أشهر فى المتوسط وضمت قائمة الانقلابيين أسماء كثيرة منها الدمنهورى ورشاد مهنا ومحسن عبدالخالق «انقلاب المدفعية» وخالد محيى الدين ومجموعة كبيرة من قادة وضباط المدرعات «محاولة انقلاب المدرعات». وفى اجتماع عبدالناصر معهم فى «الميس الأخضر» اضطر للمناورة بأن يعلن تخليه عن السلطة لمحمد نجيب وخالد محيى الدين. وبعد مغادرة الاجتماع بدأت عملية التراجع عن قرارات «الميس الأخضر».

ومن بين الانقلابات التى لم تضم أيا من أعضاء المجموعة اليوليوية محاولة عبدالقادر عيد ضابط الصاعقة الذى كان يعمل بمكتب عبدالحكيم عامر. وعرف عبدالناصر مرارة نجاح الانقلاب العسكرى بعدما نجح الانقلاب العسكرى السورى الذى قضى على الوحدة المصرية السورية فى سبتمبر ١٩٦١م وكنتيجة للانفصال أصيب عبد الناصر بمرض السكر البرونزى.

ولكن الشرخ الأكبر على طريق الصراع على السلطة. جاء بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧م.

فعندما أقدم عبدالناصر على إبعاد المشـير عامر، بدأ التخطيط لانقلاب عسـكرى، وتحرك عبدالناصر بسرعة وقضى على المحاولة قبل أن تتم وانتهى الأمر بنحر عبدالحكيم عامر.

وهكذا لم يبق بجوار عبدالناصر سوى حسين الشافعى وأنور السادات.

واسـتعان الرئيس بمجموعة من القادة منهم على صبرى وشـعراوى جمعة وسـعد زايد وسامى شرف ليحلوا محل من تم إبعادهم من مقاعد السلطة والنفوذ والأضواء.

هذه المجموعة ازدادت نفوذا وقوة وتعاظم تأثيرها بعد أن اسـتأثرت بالمراكز الرئيسـية سواء بجوار الرئيس أو داخل الاتحاد الاشتراكى أو بمجلس الأمة أو بالوزارة وأجهزة الأمن.

وبعـد تعرض عبدالناصر عقب نكبة ١٩٦٧م لذبحة صدرية قرر إسـناد سـلطته للجنة ضمت على صبرى ومحمد فوزى وسامى شرف وشعراوى جمعة بالإضافة إلى الأستاذ محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الأهرام وقتذاك.

أما الحديث باسـم مصر فى المحافل الدولية فيما يتعلق بأراضيها المحتلة فى سـيناء ومحـاولات التوصل لحل يعيد لمصر سـيادتها على أراضيها مقابـل تنازلات تضمن الأمن لإسرائيل فقد منحه للاتحاد السوفيتى عبر تفويض غير مسبوق فى التاريخ المصرى المعاصر.

وعقـب القضـاء على محاولة المشـير الانقلابية التـى كانت تخفى فـى طياتها ثلاثة انقلابـات، الأول بقيـادة المشـير للتخلص مـن عبدالناصر، والثانى بقيـادة شمس بدران للتخلص من المشير، والثالث بقيادة أحمد عبدالله ضابط الصاعقة للتخلص من شمس بدران وبهذا تنتقل السـلطة إلى أجيال شـابة طموحة وتختلف فى توجهاتها عن الجيل الحاكم السـابق. وهذا الجيل الانقلابى الأحدث سنًا كان على اقتناع بأن جيل ٢٣ يوليو ١٩٥٢م بمستوياته المختلفة يتحمل المسئولية كاملة عن كل الهزائم العسكرية التى لحقت بمصر فى عامى ١٩٥٦م، ١٩٦٧م، بالإضافة إلى الهزيمة فى اليمن، كما يتحمل مسـئوليات التخلف والانهيار الاقتصادى والجمود السياسـى والشـروخ التى أصابت الجسـد المصرى وأوهنته.

وكنـت قد بذلت جهدا فى متابعة التحقيقات التى أجرتها سـلطات التحقيق العسـكرية والمحاكمـات التى تمت فى القضية التى تحمل رقم (١) لعام ١٩٦٧م والتى تفرعت منها القضيتان ٢،٣ فى العام نفسـه، وامتد الجهد لسـؤال عدد من الأصدقاء الذين لهم علاقة بهـذه القضايا إلى أن تشـكلت لدى صورة تقريبية، اسـتخدمتها كقاعدة على الاستفسـار لاستكمال الصورة.

وقد اكتفى كثيرون بالانقلاب الرئيسى الذى خطط له المشير ورجاله، ولم تحاول جهات التحقيق التعمق فى القضية، وربما كانت لهم أسبابهم. كما أن المحكمة ركزت على المتهمين الرئيسيين وبذلت جهدا فى الاستعداد وقراءة الملفات جيدا لأنها كانت تعلم أن الرئيس عبدالناصر أمر المخابرات باستيراد أجهزة تصوير وإرسالها لدائرة مغلقة تليفزيونيا تسمح له وهو فى بيته بمتابعة المحاكمة، ولكى لا تفلت من أيديها القضية اكتفت بالقضية رقم «١» وركزت عليها، على أن تنظر فيما بعد فى باقى القضايا.

وظل عدد من يعرفون بالانقلاب الثلاثى محدودا، ولم أكن أعلم أنه سيكون موضوعا للمناقشة مع أنور السادات.

وفى خريف عام ١٩٦٧م قام السادات بزيارة اللواء محمد صادق مدير المخابرات الحربية فى مكتبه، ورآنى جالسا فى مكتب محمد قناوى مدير مكتب مدير المخابرات فى انتظار موعدى معه، فطلب منى انتظاره لأنه يريدنى، وبعد أن أنهى المهمة التى حضر من أجلها وخرج من مكتب المدير صحبنى إلى الصالون الملحق بمكتب المدير ولاحظ محمد قناوى حيرتى، فأخبرنى أنه سيخبر سيادة المدير بالأمر. وكانت المرة الأولى التى التقى به بعد عودتى من ألمانيا، فسألنى عن أحوالى وكيف كانت الدراسة بألمانيا، وقال لى أنه يتحدث الألمانية وإن كان قد نسى الكثير من المفردات، وأبلغنى أن الرئيس عبد الناصر حكى له وهو سعيد فى زمن تندر فيه السعادة عنى وعن تنظيمى لحملة تبرعات فى ألمانيا، تحولت إلى حمولة طائرة من الأدوات والمعدات الطبية، وسألنى عما إذا كنت قد تابعت المحاكمة، فأجبته بنعم، وعبرت له عن حزنى لأن حياة المشير قد انتهت بهذه الصورة، فقال إنه أيضا شعر بالحزن، وأن حكيم كان من أعز الأصدقاء لرجولته وطيبته وشهامته، واستطرد قائلا، ولكن كان من الخطأ أن يحاول الانقلاب على سيادة الرئيس، وأن يستمع لنصائح شمس (يقصد شمس بدران الذى كان يشغل منصب وزير الحربية أثناء فترة الهزيمة)

وظللت أتساءل، وهو يتحدث، متى سيتحدث عن الموضوع الذى استدعى أن ينتحى بى فى هذا الصالون من أجله؟

وقلت لنفسى: هل هناك قضية سيطلب منى أن اكتب عنها؟ وهنا قلت. لو كان ذلك هو السبب فما أيسر أن يطلب ذلك من صديقه موسى صبرى صاحب الباع الطويل فى الكتابة ورئيس تحرير الأخبار أو من جلال الحمامصى الذى عاد للكتابة خلال محنة يونيو.

وتذكرت آخر مرة رأيته فيها باستراحة المشير بالهرم قبل سفرى لألمانيا بعدة أيام حيث رأيت أنه من اللياقة أن أخبر المشير بسفرى وبسبب السفر وعلى مائدة العشاء التى ضمت المشير وزوجته برلنتى عبدالحميد وعباس رضوان وصلاح نصر وشمس بدران ومصطفى عامر والسادات وأنا قال مازحا: لقد قررت الهرب من الأولاد والمبيت هنا. فرحب المشير وقالت الفنانة برلنتى: سأعطى تعليماتى بإعداد حجرة النوم المعتادة. فضحك. وقال: «إنتى عايزانى أنام على سرير زى ولاد الأصول. لا افرشى لى مرتبة على الأرض».

ومن بين الضحكات التى انفجرت من الجالسين حول المائدة علق المشير قائلا «فعلا أنت عندك حق. ثم التفت لبرلنتى وقال: اسمعى كلام أنور».

واستنتج الحاضرون أن السادات يريد أن ينفرد بالمشير بعد انصراف الجميع للحوار حول قضية أو مشكلة ما وبعد العشاء دار الحديث حول اليمن واتفق الجميع أن الوضع بالغ السوء، وأن كل الأطراف تريد استمرار مصر فى هذا المستنقع.

**واستأذنت فى الانصراف**

تساؤلات كثيرة كانت تتوالى والسادات يتحدث معى عن المحاولة الانقلابية للمشير، والنصائح المسمومة لكل من كانوا حوله ولم أجد بأسا فى أن أخبره بما أعلم عن الانقلابات الثلاثة وتوقعت أنه لا يعرف شيئا عنها.

فقلت للسادات: إنه كان يخطو على طريق نهايته فى كل الأحوال. وأدركت أننى لم أقل ما يشير إلى المعنى المقصود فواصلت قائلا: إن الانقلاب أيا كانت النتائج سواء نجح أو فشل كان سيقود المشير إلى نهايته.

**وظهرت ملامح الاستغراب على وجه الرجل وسألنى كيف؟**

فأجبته قائلا: إنه لم يكن انقلابا واحدا بل كان ثلاثة انقلابات؛ أولها ضد عبدالناصر والثانى للتخلص من المشير والثالث لإزاحة شمس بدران. وكان الهدف الخلاص من الجميع وحكيت له ما عرفته.

وقال وهو يهم بالانصراف: لماذا لا تكتب عن انتهاء القيادة العسكرية من إنشاء الخط الدفاعى الأول غرب القناة لكى تطمئن الرأى العام أن خطة إعادة بناء القوات المسلحة التى يشرف عليها ويتابعها الرئيس تمضى فى طريقها بثبات؟

ثم سألنى عما إذا كان يطلب من الفريق أول فوزى الاتصال بى؟ فوعدته بأننى سأكتب وشكرته على العرض. وخمنت أن هذه هى القضية التى يهتم بها.

وعندما عدت للقاء مدير المخابرات تساءل عن هذا الحب الساداتى. فقلت له إنه طلب منى أن أكتب عن الانتهاء من إنشاء الخط الدفاعى الأول. فسألنى هل عرفت لماذا؟ فقلت لـه : لا فقال: إن عبدالناصر لن يذهب إلى مجلس الأمة لافتتاح الدورة الجديدة التى يحل موعدها فى نوفمبر القادم إلا بعد استكمال بناء هذا الخط حتى يستطيع أن يخاطب الناس بالطريقة نفسـها التى كان يتحدث بها من قبل. الرئيس لا يريد أن يوجه الخطاب ومصر غير مستعدة للدفاع عن الجبهة بالدرجة الأولى ولو تأخر افتتاح الدورة البرلمانية فربما يفكر فى حل المجلس.

ولأن اللقاء بالسـادات كان مفاجئا بالنسبة لى، ولأنها المرة الأولى التى يطلب فيها منى الكتابة عن قضية يهتم بها، ولأن الحديث معه تطرق إلى المحاولة الانقلابية للمشير عامر، فقد بدأت الذاكرة فى استعادة الملامح الرئيسية لعلاقة عبدالناصر والمشير عامر التى انتهت بشـكل مأسـاوى ولكن المهم أن الرئيس تمكن من التخلص مـن عبدالحكيم عامر. بعد أن فشـلت محاولات كثيرة من قبل آخرها ما قام به بعد الانفصال السـورى عام ١٩٦١م. فقد عمل الرئيس على اسـتغلال هذا الظرف لإبعاده عن القمة وعن المشاركة فى السلطة خاصة وأنه قد عاد إلى مصر مهانا مكسورا من دمشق. فقد تعمد الانقلابيون وعلى رأسهم عبدالكريم النحلاوى مدير مكتبه إذلاله ومعاملته بصورة سـيئة تخلو مـن اللياقة فقد خلعوا علامات الرتبة من فوق كتفه. وامتدت المعاملة السـيئة لتشـمل معظم القادة العسـكريين المصريين ونسبة كبيرة من المدنيين الموجودين بسوريا. وقرر إصدار قرار بتشكيل مجلس رئاسى يضم مجموعة من المدنيين والعسـكريين من بينهـم عبدالحكيم عامر الذى رفض أن يكون مجرد عضو بالمجلس بعد أن كان النائب الأول لرئيس الجمهورية ونائب القائد الأعلى.

وغادر القاهرة إلى قريته «أسطال» بمحافظة المنيا ومن هناك توجه سرا إلى مرسى مطروح واكتشـف عبدالناصر اختفـاء عامر. وبعد أيام تبين أن المجموعة الرئيسـية من كبار قادة القوات المسلحة وفى مقدمتهم قادة الأفرع الرئيسية البرية والجوية والبحرية غير موجودين بالقاهـرة ولا يعلم أين ذهبوا. فأدرك أنه فى مواجهة انقلاب سـلمى، وأن عامر قد انتصر فى هذه الجولة فقرر الاستسـلام. وتمنى ألا يمضى حكيم إلى أبعد من ذلك ويقرر عزله أو

تحجيمه أو تركه على مقعد الرئيس «كخيال مآته» بعد أن أمسك فى يده كل خيوط القوة.

وطلب عبدالناصر من شمس بدران التدخل والتوسط لإعادة عبدالحكيم خاصة وأنه قرر الاستجابة لكل مطالبه والتراجع عن قرار تشكيل المجلس الرئاسى الذى أغضبه.

وعاد عامر منتصرا بصحبة عدد من القادة وصلاح نصر وشمس بدران. وعاتب عبدالناصر وسبه وهدده. وكان حادا وغاضبا وهو يقول له: لقد ساعدتك فى التخلص من الآخرين والآن تريد التخلص منى. إنك موجود على مقعدك هذا فى حمايتى، ولأننى أريدك أن تكون الرئيس. لا لأنك الرئيس والآن تعلم أننى أستطيع التخلص منك.

ويعتذر عبدالناصر بانكسار أمام الجميع ويتمادى عبدالحكيم فيسب عبدالناصر سبا موجعا. ولا ينطق الرئيس لأنه يدرك صعوبة الموقف حيث يقف وحده.

ويتقاسم عامر السلطة مع ناصر، له كل ما يتعلق بالداخل، ولعبد الناصر الشئون الخارجية، وله مخصصات مساوية لمخصصات عبدالناصر. ثم هدده بألا يتدخل أبدا فى شئون القوات المسلحة.

لقد اقتسما التركة. أو فلنقل إن عبدالحكيم قام بقسمة التركة وحدد نصيب كل منهما. هكذا كان الأمر وهكذا كانت الرؤية والتصرفات.

وضاعف الموقف من محنته. إلا أنه انتظر إلى أن حانت اللحظة عقب هزيمة يونيو ١٩٦٧م المفجعة فاستغلها لإبعاد عامر.

وأمام شعوره بالمرارة أقدم على العمل من أجل الانقلاب على عبدالناصر والتخلص منه. ولكنه دفع حياته ثمنا.

وبدأت عملية إعادة بناء القوات المسلحة وانشغل الجميع بمحنة احتلال إسرائيل لسيناء وتهديدها الدائم لمدن القناة.. ويرحل عبدالناصر عن عالمنا يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠م وقبل أن تنتصف ليلة يوم الرحيل قرر الفريق أول محمد فوزى الإعداد لانقلاب عسكرى بالتعاون مع سامى شرف وباقى أفراد المجموعة التى كانت ترى أنها الأحق بوراثة سلطة عبدالناصر.

وتمكن الفريق محمد صادق رئيس الأركان من إحباط هذا الانقلاب فى مهده كان فوزى قد أعد عدة قرارات بنقل عدد من رجاله إلى المواقع القيادية التى تساعد على تنفيذ

الانقــلاب، وقرر فــوزى إلغاء هذه القرارات فى نفس ليلــة صدورها، وأوقف دوران عجلة الانقلاب، وفى النهاية انتصر منطق الشرعية.

وعــرف الســادات أن الصراع لمنعه من الصعود إلى مقعد الرئيــس قد بدأ مبكرا وأنه لن يتوقف إلى أن تحقق هذه المجموعة هدفها.

وكان عليه أن يتعامل مع الموقف بكل صعوباته. وانحنى أمام العاصفة كما انحنى أمام تمثــال عبدالناصر. وظل يطرح أهمية القيادة الجماعية ويتصرف باعتباره رئيســا ضعيفا لا حول له ولا قوة.

وفى أول وزارة أمر السادات بتشكيلها، أسند رئاستها إلى محمود فوزى. ولكن الرئيس الحقيقــى كان شــعراوى جمعة الذى رأس أكــبر عدد من الوزراء ضمهــم إلى لجنة وزارية برئاسته.

وقبــل محمود فوزى أن يكون رئيس وزراء شــرف. ولكن هذه المجموعة كانت تتعجل الإطاحة بالسادات.

وبجسارة محسوبة أقدم السادات على إلغاء الحراسة. وكان بهذه الخطوة يدين المرحلة السابقة التى فرضت الحراسة على شرائح من المواطنين، وفى الوقت نفسه يعلن للرأى العام أنه قادر على تصحيح الأخطاء.

وأكســبت هذه الخطوة الرئيس شــعبية وتأييدا لأنها عالجت خطأ ومنحت قبلة الحياة لكثير من المظلومين وفتحت الباب للآمال فى تصحيح أخطاء أخرى.

وقبــل وفاة الرئيس عبدالناصر أعلن قبوله لمبادرة روجرز وزير الخارجية الأمريكى وبناء على ذلك تم وقف إطلاق النار على امتداد الجبهة اعتبارا من يوم ٨ أغسطس عام ١٩٧٠م لمدة ثلاثة أشهر.

وعندما انتهت الأشــهر الثلاثة جمع السادات المجلس الأعلى للقوات المسلحة يوم ١٩ أكتوبر وحصل على قرار بمد فترة وقف إطلاق النار ٩٠ يوما أخرى.

وبعد انتهاء هذه الفترة دعا الســادات اللجنة المركزية العليا للاتحاد الاشتراكى لمناقشة الموقــف ومحاولــة التوصل لقرار حول المبادرة وما إذا كانت مصر ســتقبل تمديد فترة وقف إطلاق النار مرة أخرى أم سنعود مجددا إلى حرب الاستنزاف.

المهم أن الســادات فى النهاية تمكن من مد فترة وقف إطلاق النار وتقدم بمبادرة للســلام هى الأولى من نوعها فى شهر فبراير ١٩٧١م.

هذه الخطوة أغضبت الفريق أول محمد فوزى وزير الحربية وباقى مجموعة الورثة.

وفى أبريل من العام نفسه، توجه السادات إلى ليبيا ليلتقى مع كل من معمر القذافى حاكم ليبيا وحافظ الأسد حاكم سوريا وجعفر نميرى حاكم السودان، وينتهى اللقاء بتوقيع اتفاق وحدة ثلاثية تجمع مصر وليبيا وسوريا بعد أن اعتذر نميرى عن الانضمام لدولة الوحدة.

**وعند هذه النقطة بدأ الصدام بين المعسكرين**

وخسر السادات الجولة الأولى أثناء اجتماع اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى (التنظيم الحزبى الوحيد الذى كان موجودا وقتذاك) فقرر نقل الصراع إلى اللجنة المركزية. طوال هذه الفترة كانت مجموعة الورثة التى وُصفت «بمراكز القوى» تواصل اجتماعاتها ومناقشاتها ووضع اللمسات النهائية لخططها الخاصة بالإطاحة بالرئيس السادات بحضور السفير السوفيتى بالقاهرة.

وفى الوقت نفسه. حرص الفريق أول فوزى على الاقتراب من الفريق محمد صادق رئيس أركان حرب القوات المسلحة والتودد إليه، وبدأ يدعوه لحضور اجتماعات المجموعة.

وعندما زاد معدل الاجتماعات استنتج الرجل أنهم اقتربوا من نقطة الصدام الحاسم.

وضاعف من ثقة الفريق أول فوزى وباقى أفراد المجموعة فى الفريق صادق، أن الرئيس لم يكن يتصل به تليفونيا كما أن رئيس الأركان لم يسع من جانبه لإقامة أية علاقة أو إجراء أى اتصال بالرئيس السادات.

وخلال هذه الاجتماعات كان الرئيس يتعرض لانتقادات قاسية هو وأسرته. ونالت الألسنة من وطنية الرجل ولون بشرة والدته.. وآثر صادق الصمت خلال هذه الاجتماعات وإن لم يتوقف عن التفكير فى أفضل الطرق لتجنيب مصر والقوات المسلحة هذا الصراع. وكانت عينه على إسرائيل ومخططاتها كما كان يتحسب لتأثير هذا الصراع على الأوضاع الداخلية.

وما أن انتصف شهر مايو ١٩٧١م حتى انفجر الصراع بين السادات وخصومه.

❑❑❑

# الفصل الثالث

# مايو ١٩٧١م.. شهر الصراع على السلطة

## (١)

قبلت مجموعة الورثة التى عرفت فيما بعد باسم مراكز القوى بمنطق الشرعية الدستورية وبالتالى أصبح أنور السادات نائب الرئيس رئيسا للجمهورية ورأى هذا الفريق أن السادات شخصية ضعيفة يسهل التهامها عندما يصبح الوقت ملائما وظلوا منذ لحظة انتخابه فى حالة ترقب. ولم يختلف الأمر بالنسبة للسادات فقد كان على بينة مما يُدبر له وحاول أن يبحث عن طريق واختار أن يتحرك على محورين، الأول: التظاهر بالضعف الذى يتفق وتصوراتهم وبالتصرف وفق ما يتوقعونه. والثانى: محاولة التخفيف من المظالم التى نالت من مجموعة كبيرة من المواطنين نتيجة فرض الحراسات والاستيلاء على الممتلكات، فأقدم بجسارة على إنهاء وتصفية الحراسات.

لقد خدعتهم مرحليا ادعاءات الضعف ولكن شكوكهم استيقظت على قرار إلغاء الحراسات خاصة وأن الأمر يتجاوز حدود القرار لأنه يعد خروجا على المنهج الناصرى بل يمكن اعتباره طعنة موجعة لهذا المنهج وإدانة له. وبهذا القرار أعطى السادات إشارة ايجابية للرأى العام وقال لهم بوضوح إنه مختلف عن عبدالناصر وإنه سيواصل تصحيح ما يحتاج إلى تصحيح وبدأ يكسب شعبية ويلقى قبولا.

وشهدت الفترة من أكتوبر ١٩٧٠م وحتى أبريل ١٩٧١م مناوشات كثيرة بين الطرفين. والطرفان هنا السادات فى جانب والأغلبية الهائلة فى جانب آخر: الفريق أول محمد فوزى وزير الحربية وشعراوى جمعة وزير الداخلية والدكتور لبيب شقير رئيس مجلس الأمة أمين عام الاتحاد الاشتراكى ورئيس اللجنة التنفيذية العليا ورئيس اللجنة المركزية ورئيس اتحاد العمال ومدير المخابرات العامة ومحمد فايق وزير الإعلام. أى أن الأجهزة القابضة على السلطة كلها فيما عدا منصب رئيس الجمهورية فى جانب والرئيس فى جانب وبكل الحسابات لا يمكن للرئيس أن ينتصر فى معركة مع كل هؤلاء.

ومع ذلك لم يستسلم السادات وظل يناوش ويحاول أن يكسب أرضا. وكانت هذه المجموعة تعمل على تشديد الحصار من حول السادات وقد حاول وزير الحربية استدراج رئيس الجمهورية للتوقيع على قرار بتجديد معارك الاستنزاف فقدم له الوثيقة لتوقيعها وهو يهم بركوب سيارته بعد انتهاء أحد الاجتماعات العسكرية التى شهدها بمقر وزارة الحربية إلا أن الرجل تنبه ورفض التوقيع وحانت لحظة الحسم بعد توقيع اتفاقية الوحدة الثلاثية بين مصر وليبيا وسوريا فى نهاية اجتماعات القادة فى ليبيا يوم ١٧ أبريل ١٩٧١م بعد توقيع هذه الاتفاقية بدأت المجموعة تتحدث بشكل سافر عن مخططاتها للتخلص من رئيس الجمهورية.

وقام الفريق فوزى بزيارات متعددة للتشكيلات والوحدات العسكرية للتحريض ضد السادات وأجرى اتصالات بالقادة الذين يثق فيهم. وقد لفت الأنظار أثناء زيارته لوحدات الصاعقة بأنشاص أن طلب منهم أن يقسموا على الولاء للقائد العام أى له هو لا للقوات المسلحة ولا للوطن ولا للرئيس، ومثل هذا القسم لفت الانتباه إلى أن الرجل يخطط لانقلاب عسكرى وأنه يريدهم معه كقوة يعتمد عليها.وبما أن قادة وضباط من الصاعقة قد عاشوا تجارب انقلابية لم تنجح، لذا تضاعفت عندهم القدرة على شم الرائحة الانقلابية، وقد شموها أثناء زيارة الوزير لهم، وتناول الطعام معهم لكى يكون بينهم «عيش وملح» وتباسطه فى الحديث واستعداده لتلبية مطالبهم.

ولخطورة هذه الخطوة، أرسل الفريق صادق عددا من قادة وضباط الصاعقة من الذين خبر معدنهم، خاصة هؤلاء الذين ضمتهم المجموعة ٣٩ قتال والذين قاتلوا تحت قيادته طوال فترة معارك الاستنزاف، التى تحمل مسئولية إدارتها وقيادتها شخصيا، لمواجهة ماقام به فوزى وإحباط مخططاته لاستخدام الصاعقة فى صراعه مع السادات.

أما بالنسبة لباقى التشكيلات والوحدات فقد زارها بنفسه وحاور القادة حول الأزمة، وانتهوا إلى عدم تنفيذ أى أوامر يصدرها فوزى، وأنه من الضرورى الرجوع إليه شخصيا والتأكد أنه المتحدث، وكان الجميع عند مستوى المسئولية.

ومساء يوم ٢١ أبريل فوجىء الفريق محمد صادق باستدعاء من الفريق أول فوزى للقائه بمكتبه وما أن صافحه حتى بدأ يسب الرئيس سبا مفذعًا متهما إياه بكل التهم، وبدا واضحا أن الوزير القائد العام قد فقد أعصابه. بعدها سحب ورقة وكتب بخط يده أمرا

باتخاذ مجموعة من الإجراءات للسيطرة على القوات المسلحة وإعدادها للتخلص من رئيس الجمهورية.

ونص الأمر على أن يبدأ رئيس الأركان من باكر أى يوم ٢٢ أبريل ١٩٧١م فى وضع خطة تعتمد على الفرقة السادسة المشاة الميكانيكية واللواء ٢٥ المدرع مستقل بغرض تنفيذ أوامر محمد فوزى وباقى أعضاء الفريق لإحكام السيطرة على القاهرة كما تضمن الأمر إعداد المخابرات الحربية والشرطة العسكرية لتنفيذ أوامر الاعتقال المحتمل صدورها.

وأيضا نص على وضع نظام سرى للاتصال والسيطرة وتحديد أماكن التجمع بالإضافة إلى التخطيط للاستيلاء على الإذاعة والتليفزيون والسيطرة على مداخل القاهرة وقيام إدارة الحرب الإلكترونية بالتشويش على أجهزة اللاسلكى بالسفارات لمنعها من نقل أخبار التحركات العسكرية إلى الخارج.

وما يثير الدهشة أن الفريق أول فوزى وزير الحربية القائد العام تجاهل كل ما هو موجود فى الكتب العسكرية وكتب بخط يده أن الأمر الذى سلمه لرئيس الأركان صادر منه ومن شعراوى جمعة وسامى شرف. وبهذا الأمر وصل الصراع على السلطة إلى الذروة واستغرق الفريق صادق فى تفكير عميق طوال ليلة ٢٢/٢١ أبريل ١٩٧١م قبل أن يضع إطارا لخطة عمل تستهدف التالى:

- الحفاظ على سلامة القوات المسلحة أولا وأخيرا وألا تتعرض لما يشغلها عن الاستعداد للمعركة.

- أن تكون القوات المسلحة لمصر كلها أى ألا تنحاز أو تستخدم لصالح معسكر دون الآخر.

- إن واجب القوات المسلحة هو تحرير الأرض المحتلة واستعادتها من القوات الإسرائيلية ولن تتمكن من تحقيق هذا الواجب إلا إذا تفرغت لأداء هذا الدور وحمل هذه المسئولية وإن يتحقق ذلك دون تصفيات دموية لكى تبقى القوات المسلحة وحدة متكاملة تحت راية الوطن.

وأدرك الفريق صادق أن اللحظة قد حانت لطمأنة رئيس الجمهورية الذى كان يعيش ويعانى من حالة متقدمة من الفزع والخوف والهلع خشية ما يمكن أن يحدث له ولأسرته.

لقد كان يرى الحلقة وهى تضيق من حوله يوما بعد يوم ولا يدرى ماذا يفعل. لم يكن

هناك من يمكن أن يخاطر ويقف بجواره إلا نفر من السياسـيين فى مقدمتهم عزيز صدقى وهيكل وموسى صبرى ولكن كل هؤلاء لا يملكون قوة يمكنها التصدى لانقلاب عسكرى.

وبمـا أن السـادات موضوع تحت المراقبة هو وهيكل فقد كانـت اتصالاتهم وتحركاتهم وأحاديثهم مرصودة مما أصابهم بالشلل. وأيضا لم يكن لدى الرئيس مصادر جيدة للمعلومات تضـىء لـه الموقف وتطلعه على ما يجرى وما يدبر لـه. ولأننى كنت قد تمكنت من توثيق علاقتـى بالفريق صادق عبر مشـوار طويـل وإن كان تطوعى للانضمام لقـوات الكوماندوز «المجموعة ٣٩ قتال» وإصرارى على التطوع وتوقيعى وثيقة تفيد أن القوات المسـلحة غير مسـئولة عنى فى حالة الاستشهاد والإصابة والفقد والأسر، واشتراكى فى العمليات خلف خطوط العدو بالرغم من أننى مدنى ولست عسكريا محترفا كان من أهم ركائز ثقة الرجل فى شـخصى؛ لذا كنت قريبا مما يجرى، ولكن هذا القرب كان عبئا حيث كان من الضرورى التزام الصمت تجاه ومع الجميع.

وعندما قرر محمد صادق طمأنة الرئيس السادات وإحاطته بما يجرى بحث، حوله ولم يجد من يسـند إليه هذه المهمة سـواى، والأمر ببساطة إننى كنت موضع ثقته والأهم إننى كنـت العنصر الوحيد الذى لم تفـرض عليه أى رقابة لا على تحركاتى ولا على تليفوناتى كمـا إننـى بحكم عملى كنت أتردد كثيرا على وزارة الحربية وألتقى برئيس الأركان وغيره من القادة وأيضا بحكم عملى فى الأهرام كنت ألتقى بالأستاذ هيكل رئيس التحرير.

وقد طلب منى الفريق صادق أن انقل رسـالة شـفهية للأستاذ هيكل لينقلها إلى الرئيس السادات لكى تنير له الطريق وتجعله على بينة. وبمجرد دخولى مكتب الأستاذ هيكل أدرك أن هناك شيئا، وأننى أتحرج من الحديث فى مكتبه، فصحبنى إلى خارج المكتب وأخذنا نسـير بالقرب من صالة التحريـر الموجودة بالدور الرابع بمبنـى الأهرام الجميل الحديث والعصرى وأنا أخبره بالرسالة، وقد طلب منى الرجل أن أعيدها على مسامعه مرة أخرى، بعدها علق قائلا باللغة الانجليزية «He Push it so RFr».

وبسـرعة تيقن مـن خطورة مايجرى ومن أهمية الرسـالة، فقرر التوجـه للقاء الرئيس السـادات فورا، وطلب منى عدم مغادرة الأهرام. كان إبلاغ السـادات بالرسالة له الأولوية فى هذه الساعات الحرجة التى سيتحدد فيها مصير نظام الحكم والرئيس شخصيا والأستاذ هيكل الذى كان موضع غضب هذه المجموعة خاصة على صبرى ومحمد فوزى وأذكر هذه

الواقعة الكاشـفة لكراهية محمد فوزى للأسـتاذ هيكل فقبل أيام من رسـالة طمأنة الرئيس كنت فى طريقى لوزارة الحربية وقبل أن أصل إلى المدخل المطل على شارع الخليفة المأمون شـاهدت سـيارة وزير الحربية تدخل إلى المبنى فطلبت من السائق التمهل حتى لا أدخل أثناء مراسـم اسـتقبال الوزير بعدها اجتزت البوابة الرئيسية وصعدت سلالم المدخل الذى يؤدى إلى ردهة شـبه مسـتديرة فشـاهدت الوزير وهو يقف بالدور الأول مطلا على المدخل والردهة فتيقنت أنه لمحنى أو لمح سـيارة الأهـرام التى تقلنى فقرر الانتظار وما أن رفعت رأسى لأنظر إليه حتى سمعته ينادينى قائلا: يا مباشر أبلغ هيكل أنه يتحمل مسئولية ما فعل ويفعل وأنه لن يفلت من هذه المسئولية.

رسالة تهديد واضحة وعلنية أمام كل من كانوا بصحبته أو فى انتظاره، كما كان هناك كثيرون خرجوا من مكاتبهم ليسمعوا ما يقوله الوزير فقلت له: يا سيادة الوزير إن الأستاذ هيكل رئيسـى ولا أسـتطيع أن انقل له مثل هذا الكلام وبما أنكما من الكبار وعلى اتصال فإننى أقترح أن تبلغه ذلك بنفسك.

فعقب قائلا: طيب يا مباشر. وغادر هيكل الأهرام وظللت أترقب عودته لأعلم منه كيف استقبل السادات الرسالة. وكان جوهر الرسالة أن القوات المسلحة الآن تحت سيطرة رئيس الأركان وأن الانقـلاب الذى خطـط له الفريق أول فوزى بالتعاون مع المجموعة والسـفير السوفيتى بالقاهرة لن يتحول إلى أمر واقع أبدا.

وكمـا هو متوقع فقـد تنفس الرئيس بعمـق لأول مرة منذ اندلاع الأزمـة وتصاعد حدة المواجهة وبدأ يعرف الاطمئنان بشـكل نسبى كما أدرك أن له اليد العليا الآن وأن خصومه لن يتمكنوا من النيل منه أو من أسرته وأنه آمن على مقعد الرئيس.

ولم يكتف السـادات بسـماع الرسالة من هيكل وطلب أن يسمعها منى أنا أيضا وبشكل مباشـر. وعندما عاد الأسـتاذ هيكل إلى الأهرام وأبلغنى برغبة السـادات استأذنته فى أن أعرض الأمر على الفريق صادق أولا وتوجهت إلى مبنى الوزارة وقصصت على رئيس الأركان كل ما جرى فبدت عليه الدهشة من طلب الرئيس السادات وتساءل بصوت عال ألم يدرك سـيادة الرئيس أنك تقوم بهذا الدور لأنك الشـخص الوحيد بيننا الذى لم تفرض عليه أية رقابة؟!

ثم تسـاءل أهى اللهفة أم الرغبة فى الاستيثاق؟ أم التطلع لزيادة جرعة الاطمئنان التى

أوقعته فى مثل هذا الخطأ؟! وكيف فاته أن الجماعة ستفرض عليك رقابة صارمة على مدار الساعة بمجرد علمهم باستقباله لك وبالتالى لن تتمكن من مواصلة أداء هذا الدور وسيفقد هو قناته الوحيدة المتاحة؟ وطلب منى أن أعود إلى الأهرام لكى أوضح الأمر للأستاذ هيكل لكى يعرضه هو بطريقته وأسلوبه على الرئيس السادات.

وواصلت تحمل هذه المسئولية طوال هذه الفترة الحرجة أو فلنقل البالغة الحرج والتى انتهت بانتصار السادات على خصومه فى معركة الصراع على السلطة وبهذا النصر تجمعت كل خيوط القوة فى يده.

وإذا كان عبدالناصر قد احتاج إلى أكثر من أربع سنوات لجمع عناصر القوة والسلطة فى يده أى من يوليو ١٩٥٢م إلى نهاية عام ١٩٥٦م وانسحاب قوات الغزو الفرنسية والانجليزية من بورسعيد فإن السادات لم يستغرق منه الأمر سوى فترة قصيرة جدا امتدت من سبتمبر ١٩٧٠م حتى مايو ١٩٧١م ويمكن القول أن مجموعة الورثة التى سعت بكل قوتها للوصول إلى قمة السلطة فى مصر قد صعدت سلم السلطة واقتربت من الرئيس عبدالناصر واكتسبت ثقته واستمدت منه نفوذها وأسباب وجودها نتيجة ثلاثة عوامل هى:

١- أسلوب الحكم: فالأسلوب الذى اتبعه الرئيس عبدالناصر كان يقوم على سيطرته الكاملة على السياسة والقرار ولهذا تخلص من قيادات ٢٣ يوليو واحدا وراء الآخر ومن كل الجماعات سياسية كانت أو نقابية أو غيرها لاقتناعه العميق وفهمه لقواعد الصراع فالبطولة والتمرد والعصيان تقوم به جماعات لا أفراد فليس هناك مجال لنجاح تمرد أو عصيان فردى، وعلى هذا الطريق قضى على الأحزاب والنقابات والاتحادات وعمل على التوسع فى إنشاء قوى أمنية جديدة ودعم ما هو قائم منها لبسط سيطرته كما لجأ إلى تشكيل تنظيم سرى داخل التنظيم السياسى الوحيد وعمل على دفع مجموعة من المساعدين الصغار إلى الأمام ليتصدروا العمل السياسى والتنفيذى نكاية فى رفاق ٢٣ يوليو أو ثمنا لما قدموه من خدمات أو فى إطار معادلة القوى بينه وبين عبدالحكيم عامر.

٢- هزيمة يونيو ١٩٦٧م: كان حجم الهزيمة فادحا وكان عبدالناصر وحده هو المسئول عنها إلا أنه استغلها للتخلص من عبدالحكيم عامر وأعوانه. وخلال هذه الفترة خلا المسرح تماما أمام هؤلاء الذين استعان بهم عبدالناصر ولأن الرئيس بدأ فى الإمساك بخيوط القوات المسلحة وأعطى لها جُل وقته فقد أعطى مزيدا من السلطات لهؤلاء المعاونين للإشراف

على شئون الدولة وإدارتها وتزامن ذلك مع زيادة وطأة المرض عليه وبالتالى عدم قدرته على الممارسة مثلما كان يفعل من قبل فتزايدت قوة قبضة هؤلاء المعاونين على الأمور وأسهم هذا الصعود المرموق إلى قمة السلطة فى تحولهم إلى فريق يرأسه على صبرى كما تعاظم طموحهم فى السيطرة والانفراد بالسلطة إذا ما أدى المرض إلى رحيل رأس السلطة.

٣- النفوذ السوفيتى: كان بداية هذا النفوذ توقيع صفقة الأسلحة التشيكية عام ١٩٥٥م وما نصت عليه من وجود خبراء ومستشارين وبدأ إرسال بعثات عسكرية للتحصيل العلمى والتدريب إلى الاتحاد السوفيتى واستدعى التحول إلى السلاح السوفيتى تغييرا فى العقيدة العسكرية بما يتلاءم مع نظام التسليح. فكل منظومة لها عقيدتها ومثل هذا العمل أدى إلى استضافة مستويات متعددة من المستشارين الكبار وإرسال قيادات سياسية وعسكرية على قمة المسئولية إلى موسكو، والسلاح فى حاجة إلى قطع غيار وذخيرة وعمليات صيانة وتدور عجلة الارتباط بالاتحاد السوفيتى بسرعة أعلى وكلما حصلت مصر على صفقة جديدة تبين أنها فى حاجة إلى صفقات أخرى فالصراع مع إسرائيل لا يهدأ وسعيها للتفوق على كل العرب لا يتوقف ولذا تحصل ترسانتها العسكرية على ما هو أفضل ويستمر السباق فى المنطقة.

وتعاظم النفوذ السوفيتى وبدأ الشيوعيون والماركسيون فى مصر فى الزحف نحو المناصب ومواقع النفوذ وارتمى فريق معاونى عبدالناصر فى أحضان السوفييت وأصبح سامى شرف جاسوسهم الكبير فى مصر وتحولت السفارة السوفيتية ومنزل السفير إلى ملتقى لهم يجمعهم هدف واحد هو سقوط مصر فى أيديهم.

كانت هذه هى الصورة يوم وفاة عبدالناصر وهو اليوم الذى انتظروه ليقطفوا الثمرة كاملة ولم يكن ممكنا أن يحدث ذلك عقب الوفاة مباشرة وكانت خطتهم بعد فشل انقلاب فوزى الأول ممارسة السلطة والحكم من خلال الرئيس السادات الذى تصوروه ضعيفا ولم يكن السادات ليقبل استمرار هذا الفريق والاستمرار فى أداء دور الضعيف فبدأ الصدام. كانت معهم كل السلطات واختاروا هم موعد المعركة مع الرئيس متوهمين أنهم الأعلون.

واجتمعوا وخططوا، وبارك السفير السوفيتى عملهم، ولم يكن هناك ما يتورعون عن الإقدام عليه لإحكام قبضتهم على مصر.

ونعود إلى الرئيس السادات: لنقول إنه قد امتلأ بالثقة بعد إن تسلم أول رسالة من الفريق صادق، وبدأ يخطط من جانبه للتخلص منهم.

ومن فوق المنصة أثناء الاحتفال بعيد العمال يوم الأول من مايو ١٩٧١م فى منطقة حلوان الصناعيــة، أعلــن تحديه لهم رغم أن الاحتفال كان مُعدًا لإحراجه والضغط عليه، ولم تدر مجموعة على صبرى ومحمد فوزى ســر هذا التحدى، أو كيف امتلك الســادات فجأة قلب الأســد ليلقى بالقفاز فى وجوههم، وقبل أن يفيقوا أعلن إقالة على صبرى من كل مناصبه يوم ٢ مايو ١٩٧١م.

واتخذ الصراع على الســلطة منذ تلك اللحظة مســارا مكشوفا وعلنيا، وسعى كل طرف ليفوز على الطرف الآخر، والفوز هنا يعنى الإقصاء لامجرد الانتصار فحسب.

❑❑❑

## (٢)

# السادات يحسم الصراع

لم يكن السادات ليقبل أبدا أن يكون رئيسا من ورق، وأن تكون عناصر القوة فى يد على صبرى وباقى أفراد المجموعة. لقد صبر طويلا. وتحمل كثيرا انتظارا لهذا اليوم. وكانت لديه خطة عمل ومجموعة أهداف، فهل يتخلى عن أحلامه وطموحاته من أجل وطنه وأهله، لأن هناك من يريد أن يسرق منه حقه؟!

وكانت مجموعة على صبرى ترى أنها الأحق بوراثة عبد الناصر، فهم السدنة وأهل السلطة والقوة والسطوة. خلال هذه الفترة اختار الفريق صادق رئيس أركان حرب القوات المسلحة حماية الشرعية، وحماية مصر من مخاطر الانقلاب العسكرى وزعزعة الاستقرار، وكان يتحسب ويخشى من تأثير صراع السلطة على قدرة مصر على مواصلة الاستعداد للحرب واستعدادها لمواجهة أطماع إسرائيل.

واختار أن أكون رسوله الذى يحمل رسائله إلى السادات عن طريق الأستاذ محمد حسنين هيكل رئيس تحرير «الأهرام» وظلت هذه القناة تعمل، وكانت تحمل معها الآمال والبشرى والفرحة طوال هذه الأيام المشحونة.

وخلال الاحتفال بعيد العمال فى الأول من مايو ١٩٧١م أعلن الرئيس فى خطوة جسورة إقالة على صبرى من كل مناصبه.

ونزل الإعلان الصاعق على رءوس الورثة بصورة غير متوقعة لم يحسبوا لها حسابا أبدا.

ولكن ها هو السادات يفاجئ الجميع ويقبض على زمام المبادرة ويحاصرهم، ويطيح برجل الصدارة بينهم، ولم يكتف بذلك، بل هاجم بقوة وعنف بقوله فى الخطاب الذى ألقاه بالاحتفال: «ليس من حق فرد أو جماعة أن تزعم لنفسها قدرة منفصلة عن هذا الشعب أو تفرض عليه وصاية».

وببراعة انتقل للحديث عن إسرائيل لدغدغة مشاعر الجماهير. وتذكير الجميع أن مصر فى صراع مع عدو يحتل أرضها. وأن أحدا لا يمكنه أن يشعل صراعا داخليا من أجل أطماعه فى السلطة لأن ذلك يصب فى مصلحة هذا العدو.

وكان الاتهام مباشــرا وواضحا وشرســا.. وأكد السادات أن القوات المسلحة سوف تعبر القناة وأن المعركة على الأبواب.

وقال أيضا: «العين بالعين.. والسن بالسن.. والنابالم بالنابالم».

وأرضت هذه الجملة الحاضرين..

ولم ينــس أن يعلن أنه طلب من الســوفييت توقيع معاهــدة تعاون من أجل تغيير وجه الحياة فى مصر. وانتقل للحديث عن بناء دولة جديدة فى مصر.

وبهذا الإعلان وهذه الخطوة كان يقدم للســوفييت ما يجعلهم يقبلونه أو على الأقل لا يعترضون على التخلص من هذه المجموعة التى كانت تعد الركيزة السلطوية التى يستندون إليها والتى تصوروا أنها ستقود مصر عن طريق الدوران فى الفلك السوفييتى.

كان يقول لهم: إنكم ستخسرون مجموعة من الأصدقاء، ولكن ستكسبون معاهدة تضمن وجودكم واستمرار نفوذكم وتأثيركم..

ولم يكن أمام السوفييت سوى القبول بالمعاهدة وتقبل الخسارة!!

وفى التاســع من مايو اســتقبل الســادات فى منزله بالجيزة الفريق أول فوزى، وطلب منه الاجتماع بقادة القوات المســلحة يومى ١١ و١٢ مايو. وبالرغم من أن فوزى قد فوجئ بطلــب الرئيس إلا أنه اســتجاب له.. وبدأ فى اتخاذ الإجــراءات وإصدار الأوامر الخاصة بهذه الاجتماعات.

كان السادات يتطلع للقاء القادة والضباط والحديث إليهم لحصار محمد فوزى، ولتوضيح الصورة لهم قبل أن يصل الصدام لذروته.

وصباح يوم ١١ مايو توجه محمد فوزى لمنزل السادات ليصحبه إلى مبنى القيادة العامة للقاء القادة والضباط.

وبعد انتهاء زيارته لمواقع القوات المســلحة فى كل من بلبيس وأنشــاص فى نهاية يوم حافل بالزيارات، توجه الفريق أول فوزى أمام الجميع لركوب سيارة الرئيس لكى يصحبه فى رحلة العودة كما هو متبع، إلا أن السادات رفض صحبته وعاد وحده إلى القاهرة.

وتسبب هذا الرفض فى إحراج محمد فوزى أمام جموع من القادة والضباط، وكشف لهم غضب السادات من الوزير وضراوة الخلاف والصراع الدائر بين الطرفين.

وصباح يوم ١٢ مايو اســتدعى السادات ممدوح ســالم محافظ الإسكندرية ليقسم اليمين كوزير للداخلية خلفا لشعراوى جمعة الذى قرر إقالته.

وقد حاول سامى شرف إقناع الرئيس بالعدول عن هذا القرار، إلا أنه لم يفلح بل وأصر السادات على إعلان الخبر تليفزيونيا.

وهذه الخطوة من الرئيس سبقتها خطوات رئيسية من جانب رئيس الأركان. فبعد أن تأكد من سيطرته على القوات المسلحة، وأن أى أمر يصدر من وزير الحربية القائد العام لأى قائد بدءا من قادة الأفرع الرئيسية للقوات المسلحة وصولا إلى قادة الفرق وغيرهم من القادة لن ينفذ.. وأن أى أمر من رئيس الأركان لن يجد طريقه للتنفيذ إلا بعد الاتصال بالفريق صادق شخصيا للتأكد أنه هو الذى أصدر الأمر، قرر أن يؤمن الحرس الجمهورى، وهو القوة العسكرية الرئيسية والكبيرة التى تحمى رئيس الجمهورية بصفة رئيسية، وتحمى النظام فى مواجهة أى انقلاب عسكرى، أو أى تحركات عسكرية تستهدف أى مقر من مقارات الرئاسة.

وكان اللواء الليثى ناصف قائد الحرس الجمهورى يدين بالولاء لسامى شرف، وبالتالى كان ضالعا مع مراكز القوى. ولتأمين الحرس الجمهورى، قرر محمد صادق إرسال رسالة إلى قائده اللواء الليثى ناصف.. ولكن كيف؟!

ووقع اختيار صادق على الفريق سعدالدين متولى.. كبير الياوران السابق.. ودفعة الرئيس السادات، فوجه له الدعوة لكى يتناول معه طعام الإفطار بمنزله، وفى الوقت نفسه اتصل بى لكى أشاركهما هذا الإفطار.. وقال لى ممازحا: ستكون أنت وسعد أغلبية.. فكلاكما متزوج من ألمانية، وبالتالى فأنتما أقرب لبعضكما منى.

ولأنه كان يعلم أن تليفونه مراقب، فقد حرص على إضفاء الطابع الاجتماعى على هذه الدعوة.. وركز كثيرا فى الحديث عن الصداقة التى تجمعنى وسعدالدين متولى.. وأن هذا الإفطار ليس أكثر منه مناسبة تجمع بين أصدقاء.

ودار الحديث بشكل ودى بيننا نحن الثلاثة، ولكن سعد كان يدرك أن فى الأمر شيئا. وأن وراء هذه الدعوة وفى مثل هذه الفترة سببا.. ومع ذلك لم يسأل أو يستفسر.. وأيضا لم يتعجل.. وفى أثناء تناول أقداح القهوة، غير الفريق صادق مجرى الحديث.. وطلب من الفريق سعدالدين متولى أن يلتقى بالليثى ناصف وينقل له رسالة مؤداها: إنه إن لم يذهب إلى السادات اليوم ويعلن له عن ولائه.. وبمعنى آخر أن ينتقل من المعسكر الذى يقف فيه إلى المعسكر الآخر.. فإنه سيجد نفسه مضطراً إلى منع أى تحركات لقوات الحرس

الجمهــورى خارج أماكنها الحالية. وبصورة أخرى: ســيمنع خروج أو دخول أى دبابات أو عربات مدرعة أو أى أسلحة أخرى.

ولكى يؤكد صادق أنه جاد جدا فى هذا الأمر، طلب من سعدالدين متولى أن يقول لليثى ناصــف إن هناك كمائن مضــادة للدبابات قد اتخذت مواقعها مــن حول مداخل ومخارج معسكرات الحرس الجمهورى.. وإذا أراد أن يتبين حقيقة الأمر فما عليه إلا أن يخرج من أبواب الحرس الجمهورى ويلقى نظرة على المنطقة المحيطة.

ولم يكن متولى ليقبل أن يتمكن فريق على صبرى ومحمد فوزى وسامى شرف من إزاحة السادات والوثوب إلى قمة السلطة فى مصر.

ومن منزل الفريق صادق توجه سعد إلى مكتب الليثى ناصف بمنشية البكرى ونقل إليه الرســالة.. ومن قلب الدهشــة والمفاجأة خرج الرجل إلى شــوارع المنطقة سيرا على الأقدام. وبخبرته تبين وهو يجيل النظر أن الرســالة حقيقية وأن الكمائن التى تحدث عنها صادق اتخــذت فعلا مواقعها. وأنها فعلا قادرة على منع خروج أى دبابة من أبواب معســكرات الحرس الجمهورى.

وعاد إلى مكتبه ليتصل تليفونيا بالرئيس السادات لكى يستأذن فى الحضور إليه.

وقبل أن يســتقبل الســادات هــذه المكالمة التليفونية، كانت رســالتى عــن لقاء صادق وسعدالدين متولى، وما أسفرت عنه قد وصلته.

وأمام الرئيس أعلن الليثى ناصف الولاء..

وبهذه الرسالة وهذه النتيجة تمكن صادق من تأمين الحرس الجمهورى.

وجاء يوم الخميس ١٣ مايو.. اليوم الحاســم فى الصراع على السلطة بين الطرفين. فى هذا اليوم كان مقررا أن يتوجه السادات إلى مديرية التحرير لحضور احتفال، إلا أنه اعتذر وبرزت على السطح وقتها شائعة عن وجود محاولة لاغتياله.

وصباح اليوم نفسه.. استدعى السادات ممدوح سالم محافظ الإسكندرية ليتسلم مسئولياته كوزيــر للداخلية خلفا لشــعراوى جمعة.. نجــم مجموعة الورثة. وأدركــت المجموعة أن الســادات قرر أن يحســم الأمر وأن يدفعهم دفعا للتحرك.. ولم يستطع أى منهم أن يخمن أو يحلل تحرك السادات بهذه القوة والثقة بالنفس.. فها هو بعد أن أقال على صبرى يقدم على التخلص من شعراوى جمعة.

وعندما انتصف النهار اتصل الفريق أول فوزى بالفريق صادق.. وأخبره أن السادات أقال شعراوى جمعة.. وأنهى المكالمة على وعد بإعادة الاتصال لإبلاغه بما يستجد.

وفى حوالى الساعة الثانية ظهرا. اتصل به مرة أخرى وطلب منه الصعود إلى مكتبه.

كان مكتب رئيس الأركان بالدور الأرضى.. أما مكتب الوزير ففى الدور الأول.. أى بالطابق العلوى لمبنى الوزارة بكوبرى القبة. وعندما دخل الفريق صادق مكتب الوزير وجد عنده شعراوى جمعة وعددا من أعضاء الجماعة.. ودار الحديث حول إقالة وزير الداخلية. فأوضح له أن السادات هو رئيس الدولة.. وسواء أكانوا هم الذين أتوا به أم لا، فهو الرئيس ومن حقه أن يقيل من يشاء من الوزراء، بل ويقيل الوزارة بأكملها وفقا لنص الدستور. ثم وجه الحديث لشعراوى ليخفف عنه؛ فاقترح عليه أن يطلب ممدوح سالم لتهنئته بالمنصب. ولم يفته أن يقول لهم: إن ممدوح سالم عضو فى تنظيم سامى شرف وأحد أخلص رجاله وأوثقهم صلة به كما أنه ضابط شرطة ممتاز.. وفعلا أجرى شعراوى المكالمة.

وعندما لاحظ أن فوزى يحض الموجودين على التحرك من أجل العمل لإزاحة السادات الذى تنكر لهم وبدأ فى التخلص منهم واحدا إثر الآخر، وأن الجميع أبدوا استعدادا للقيام بعمل مشترك. تدخل فى الحديث ليقنعهم بخطأ مثل هذا التفكير خاصة وهم فى حالة انفعال. واقترح عليهم العودة لمنازلهم لكى يهدأوا وذلك بهدف إخراجهم من مبنى الوزارة.

وبقى محمد فوزى بمكتبه.. وبعد قليل بث التليفزيون بتعليمات من محمد فائق وزير الإعلام وقتذاك خبر تقديم أعضاء المجموعة استقالاتهم من مناصبهم الوزارية وغير الوزارية.

وبدا واضحا أنهم يعملون من أجل إحداث فراغ دستورى، وفى تصورهم أن فوزى سينفذ انقلابا عسكريا لإزاحة السادات الذى انكشف واهتزت مكانته، وأن جماهير الاتحاد الاشتراكى ومنظمة الشباب والتنظيم الطليعى ستتظاهر تأييدا للانقلاب وفقا للخطط الموضوعة.

وكان الفريق صادق قد عاد إلى مكتبه بعد أن تأكد من مغادرة شعراوى جمعة ورفاقه مبنى الوزارة لمواجهة أى احتمالات. خاصة أن فوزى الجريح على استعداد للإقدام على أى عمل للنيل من الرئيس السادات، يدعمه فى ذلك سامى شرف وتنظيمه الذى يضم عددا لا بأس به من العسكريين بجانب أن لفوزى أنصارا بين القادة والضباط، خاصة من رجال المدفعية.

ومن المكتب أجرى مجموعة من الاتصالات بالأفرع الرئيسـية للقوات المسـلحة والمناطق العسكرية ومجموعة من القادة وكبار الضباط ليتأكد من أن خطة تأمين القوات المسلحة تنفذ دون عقبات.

وبعد قليل علم أن هناك عددا من كبار القادة قد وصلوا إلى مكتب وزير الحربية للاجتماع به. منهم محمد على فهمى وأحمد زكى عبدالحميد ومحرز عبدالرحمن. وأنه يناقش معهم مشـروعه الانقلابى. فما كان منه إلا أن ترك سلاحه فى مكتبه، وصعد إلى مكتب الوزير.. وبعد أن حيا الجميع سأله: ألم تتقدم باستقالتك من منصبك؟!.. فقال فوزى: نعم... فرد عليه قائلا: إذن لا حق لك الآن للبقاء فى مكتبك، أو عقد أى اجتماعات عسكرية، وإننى أرجو أن تتوجه إلى منزلك، وأن يتوجه هؤلاء القادة إلى مكاتبهم.

وبسـرعة غادر فوزى والقادة مبنى الـوزارة. وما أن عاد إلى مكتبه حتى اتصل بإبراهيم الرفاعى قائد المجموعة ٣٩ قتال وأمره بالتحرك فورا إلى مبنى الوزارة لتأمينه.

وبعد تأكده من استقرار الأوضاع وجد أن من واجبه الاتصال برئيس الجمهورية لطمأنته وإحاطتـه علما بما جرى، وأن محاولات مجموعة علـى صبرى وفوزى للانقلاب عليه قد فشـلت، وأن القوات المسـلحة بذلك حريصة على أن تكون خارج هذا الصراع، وأن يظل ولاؤها للسـلطة الشرعية. ومن قلب الفرحة بالفوز فى هذا الصراع، طلب من الفريق صادق أن يحضر فورا إلى منزله ليقسم اليمين كوزير للحربية، إلا أن صادق اعتذر لأنه لا يستطيع أن يغادر مكتبه الآن خشية من أى احتمالات، وأن الموقف لا يسمح له بأن يغيب أو يترك مكانه فى تلك اللحظات.

وبعد قليل تلقى صادق اتصالا تليفونيا من الرئيس السادات ليكرر طلب حضوره لحلف اليمين. ومن جديد يعتذر الرجل لأنه لا يسـتطيع مغادرة مكتبه بسـبب الظروف التى تمر بها مصر.

ولا شـك أن السـادات كان يخشى بقوة أن يستغل صادق سيطرته على القوات المسلحة وانهيار السـلطة عقب اسـتقالة المجموعة وانعزال رئيس الجمهورية عن مجريات الأمور، لكى يستولى على مقاليد الأمور.

وكان صادق يدرك حقيقة شكوك السادات، وأنها هى التى تدفعه للإصرار على حضوره لحلف اليمين كوزير للحربية.. فالحضور وحده كاف لتبديد هذه الشكوك.

وفى اتصال تليفونى آخر طلب السادات من صادق الموافقة على تحريك عدد من دبابات الحرس الجمهورى إلى سراى القبة. فاعتذر له وأخبره أنه أمر قائد الحرس الجمهورى بعدم تحريك أى قوات أو أفراد، وأنه ليس على استعداد لتغيير خطط تأمين القوات المسلحة ومصر الآن.

ولكى يطمئنه.. ويخفف من حدة شكوكه، أكد له أنه يضمن سلامته وسلامة أسرته، وأنه لا حاجة لوجود أى جندى زائد على الحراسة التى وفرها له.

وبعد أن جاوزت الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل، توجه الفريق صادق إلى منزل السادات بالجيزة لكى يحلف اليمين.. فوجد هناك الدكتور محمود فوزى وعزيز صدقى ومحمد حسنين هيكل.

وقد استقبله السادات بكل الترحيب الممكن بعد أن هدأ نفسيا، وفوجئ الرئيس بأن الفريق صادق يعتذر عن قبول منصب وزير الحربية.. ويطلب البقاء فى مكانه كرئيس أركان حرب.. إلا أن السادات رفض هذا الاعتذار. وفى النهاية أقسم صادق اليمين بعد أن وافق على تولى منصب وزير الحربية.

وتنطوى صفحة الصراع على السلطة بين رئيس الجمهورية ومجموعة الورثة دون أن تسيل الدماء.

❑❑❑

# الفصل الرابع

# الاستعمار السوفييتى

فى أعقاب نجاح محمد صادق فى إدارة أزمة الصراع على السلطة وتمكنه من الحفاظ على الشرعية، أدرك السادات أن خيوط السلطة قد أصبحت فى قبضته.. وشعر بالارتياح النسبى بعد أن أصبح وحده صاحب القرار بعد أن تخلص من الضغوط التى كانت تمارس عليه طوال الفترة الماضية. وقرر تشكيل محكمة خاصة برئاسة حافظ بدوى رئيس مجلس الشعب لمحاكمة مجموعة الورثة؛ وقد أراد من المحاكمة أن يطلع الرأى العام على جانب من الحقائق الخاصة بالتآمر عليه وعلى النظام وعلى الشرعية.. كان يعلم أن الشعب يكره هذه المجموعة.. وستؤدى المعلومات التى ستنشر عن المحاكمة إلى مضاعفة حجم هذه الكراهية.

ولم يكتف بشكر صادق علنا فى المؤتمرات واللقاءات والاجتماعات المدنية والعسكرية، بل أضاف ممدوح سالم والليثى ناصف.. ونسب إلى الثلاثة الفضل فى حماية مصر وحمايته.

وكان من أهم ملامح هذه الفترة بدء التخطيط الجاد للمعركة من أجل تحرير مساحة من الأرض المحتلة فى سيناء.. وركزت القيادة العامة جهودها من أجل تحقيق هذا الهدف.

ولما كنت أتوقع لقاء قريبا مع الرئيس السادات من أجل أن يشكرنى على الدور الذى قمت به طوال الفترة الحرجة التى سبقت الحسم، فقد توجهت بسؤال للفريق صادق: ماذا أقول؟!

فقال الرجل: إن السادات اليوم غير سادات الأمس. بالأمس كان يبحث عمن يقف بجواره.. والآن الكل يسعى لنيل رضاه أو يطلب العفو بعد أن تربع وحيدا على مقعد الرئيس بلا منغصات أو ضغوط.. وواصل قائلا: باختصار.. يجب أن تراعى أنك تتحدث إلى رئيس الجمهورية.. وأن تدرك أنه إذا شكرك اليوم فليس معنى ذلك أنه سيحتفظ بهذا الشكر طويلا. وبما أنك أديت دورا، وعرفت بما كان يدور فتحدث معه عن كل ما تعرفه من معلومات.

وخلال الأسبوع الثالث من شهر مايو ١٩٧١م تحدد لى موعد للقاء السادات باستراحة القناطر الخيرية.. وهناك وجدت إنسانا راضيا.. سعيدا.. بشوشا.. هادئا.. مستريحا.. وكأن دنياه قد خلت من المشاكل والصراعات. فسألنى عن أحوالى.. فحمدت الله. فقال: لقد أردت أن أشكرك للدور الذى قمت به. وطبعا أعرف أنه لولاك لقضيت وقتا طويلا غارقا فى الحيرة ولظل الموقف ضبابيا. ولا شك أن محمد صادق أجاد اختيار قناة الاتصال..

فأكدت له فرحتى بانتصاره، وبالاستقرار الذى ستنعم به مصر بعد الخلاص من هذه المجموعة المكروهة شعبيا ذات الارتباطات المشبوهة بالاتحاد السوفييتى.

وانتقل للحديث عن محمد صادق فقال: إنه «راجل ولا كل الرجالة».. وهذا هو صادق الذى عرفته منذ سنوات الدراسة بالكلية الحربية. ثم سألنى: هل تعلم أنها ليست المرة الأولى التى يمد لى يده؟!.. ثم أجاب قائلا، لقد سبق أن فعل ذلك فى قضية العوامة وسألنى، طبعا عارف القضية، فأجبته بالإيجاب، فعاد يمدح فى الفريق أول صادق ثم قال: إنه القائد الذى سيعد القوات المسلحة للحرب المقبلة. والتى أراها ضرورة لا غنى عنها.

وواصل قائلا: إن الاستعداد سيأخذ وقتا.. ولكننى لن أفعل مثلما فعل عبدالناصر.. ولن أقع فى الأخطاء التى وقع فيها.

فسألته: كيف؟!

فأجاب: لقد أعلن تأميم قناة السويس.. وهو قرار وطنى صحيح بنسبة١٠٠٪.. ولكنه فعل ذلك دون أن تكون مصر مستعدة للحرب. لقد بدأنا نتسلم السلاح من روسيا بعد صفقة ١٩٥٥م. وفى يوليو ١٩٥٦م لم تكن مصر قد استوعبت هذا السلاح.. كما وقع فى خطأ سوء التقدير؛ لقد تصور أن فرنسا وانجلترا لن تحاربا بسبب التأميم.. وأنهما لن يتحالفا أبدا مع إسرائيل من أجل محاربة مصر.

وأكد أنه لن يقع فى مثل هذه الأخطاء – وهو يستعد للحرب – ولن يقع فى أخطاء مثل التى وقع فيها عبدالناصر قبل وأثناء معركة يونيه ١٩٦٧م فلقد اتجه نحو الحرب ومصر فى أسوأ أوضاعها العسكرية والاقتصادية بسبب حرب اليمن.

فقلت: إن مصر تتطلع ليوم الخلاص من الاحتلال الإسرائيلى.. فقال: ولن يطول انتظارها.

وبدا كأنه تذكر شيئا. فتوقف وسألنى: كيف تمكن محمد صادق من تغيير موقف الليثى ناصف؟!..

فقصصت عليه ما جرى خلال دعوة الإفطار التى جمعت بينى وبين الفريق سعدالدين متولى بمنزل رئيس الأركان والرسالة التى طلب منه أن يحملها لليثى ناصف.

وقلت له: إن محمد صادق كان على يقين أن الليثى سيغير المعسكر الذى يقف فيه بعد تسلمه هذه الرسالة.. وبعد أن يتأكد من أنه لن يستطيع تحريك أى قوات بسبب الكمائن التى انتشرت أمام مداخل ومخارج معسكرات الحرس الجمهورى.

وبعد انتهاء الإفطار ومغادرة الفريق سعد منزل صادق، طلب من رجاله متابعة تحركات الليثى ناصف. فعرف أنه خرج سيرا على الأقدام واستطلع المنطقة وتأكد من وجود الكمائن.. بعدها توجه لمقابلة سيادتك.. وكان المعنى أنه قرر الإعلان عن ولائه لسيادتك.

وسألنى عما جرى بالوزارة.. ويقصد وزارة الحربية.. وكيف صعد محمد صادق إلى مكتب فوزى بدون سلاح؟!

فحكيت له ما جرى. وأكدت له إن رئيس الأركان ترك سلاحه بمكتبه أمامنا جميعا وصعد وحده؛ ليطلب من فوزى ومن كل القادة الموجودين مغادرة الوزارة.. الأول إلى منزله بعد أن استقال.. ولم يعد من حقه البقاء بمكتبه.. والقادة إلى مكاتبهم.. وقد استجابوا دون نقاش أو إبداء أى اعتراض.

وكان صادق يعلم أن فى الأمر مخاطرة، محمد فوزى المحاصر والمأزوم.. والذى يعيش تحت وطأة ضغوط الموقف والصراع.. وتحت إحساسه بأن الخيوط بدأت تفلت من يديه لا يمكن استبعاد إقدامه على أى تصرف. ولكنه كان يرى أن تتم هذه المواجهة، والكل يعلم أنه لا يحمل معه سلاحه الشخصى، وأنه صعد إليهم وحده دون أن يصطحب أحدا معه.

فعلق قائلا: «طول عمره راجل».

وسألنى فجأة عما إذا كنت أقرأ كتبا سياسية؟!.. فأجبته بنعم.. ثم قلت: إننى حصلت على درجة الماجستير عن رسالة لى فى العلوم السياسية.. فقال: ولكن هذه الكتب ليست هى السياسة.. إن السياسة بمعنى فن الحكم وممارسة السلطة أمر مختلف.. وهذا ما أود أن أعلمه لك. فقلت له: كم أتمنى ذلك.. واستأذنت بعد أن وصل عثمان أحمد عثمان. وكنت أعلم أن هذا وقت ممارسته لرياضة المشى.

كان اللقاء طيبا. وعلى امتداد طريق العودة استعدت ما دار من حوار.. وحمدت الله أن كل شيء مضى بصورة طيبة.

ومـن منزلى اتصلت بالفريق أول صادق.. وأنبأته بأن اللقاء كان عظيما.. وأن الرئيس لم يتوقف عن مدحه ووصفه بأنه «راجل ولا كل الرجال».

وكان منطقيا فى ظل دوران عجلة الاستعداد للحرب أن يحرص رئيس الجمهورية القائد الأعلى للقوات المسلحة على زيارة الجبهة والالتقاء بالقادة والضباط والجنود.. بالإضافة إلى قيادات الأفرع الرئيسـية للقوات المسلحة.. والذين صحبوا السادات خلال زياراته للجبهة وللمواقع العسكرية بصحبة محمد فوزى قبل وخلال أزمة الصراع على السلطة، ثم صحبوه بعد أن حسم الصراع لصالحه، لاحظوا فرقا جوهريا فى سلوك الرجل وتصرفاته.. وأقواله.

وفى كل الأحوال كان يخاطب القوات المسلحة مؤكدا أن المعركة قادمة.. واثقا من دعم الشعب واستعداده للتضحية.. مؤمنا بالقدرة على تحقيق النصر.. وبالغد.. ومطالبا الجميع بالعمل من أجل هذا اليوم.

ولأن السادات كان يرتجل كلماته دائما، وبما أننى كنت الصحفى الوحيد الذى يشهد كل هذه اللقاءات، فقد كان الفريق أول صادق يطلب منى كتابة الكلمة التى ألقاها الرئيس. بعدها يتصل بالرئيس تليفونيا، ويقرأها له قبل أن تأخذ طريقها للنشر.

ومرة بعد مرة.. أصبح الأمر روتينيا.. ولم أكن أنتظر طلبا.. وفجأة أخبرنى وزير الحربية أن السادات طلب منه أن يكلفنى بكتابة الكلمة التى سيلقيها فى لقاءاته المقبلة.

وفى كل مرة كنت أسلم الكلمة إلى مكتب الوزير فيقرأها ويعدل فيها.. ثم يأمر بإرسالها لمكتـب رئيـس الجمهورية مكتوبة إما بخط اليد على يـد خطاط محترف، أو مكتوبة على الآلة الكاتبة إذا ما كان الوقت لا يسمح باللجوء للخطاط.

وكثيرا ما كان السادات يخرج على النص.. ويرتجل إذا ما كانت هناك قضية أو موقف يريد التركيز عليه أو رسالة يريد إبلاغها لهذا الطرف أو ذاك.

ولقد كنت أتابع خطاب الرئيس أثناء هذه اللقاءات لتسجيل ما يرتجله لكى أستخدمه وأنا أعد الخطاب للنشر.. وكنت أكتب النص الصالح للنشر، وكلمة الرئيس، ويتولى مكتب الوزير توزيعه على الصحف ووكالة أنباء الشرق الأوسط.

وأمام مماطلة السـوفييت فى الوفاء بالتزاماتهم العسـكرية وضغوطهم التى لا تتوقف من

أجل الحصول على المزيد من القواعد العسكرية فى مصر والفوز بامتيازات جديدة فى كل مجال من مجالات الحياة فى مصر وتوتر العلاقات بين الخبراء والمستشارين السوفييت وأعداد كبيرة من القادة والضباط والجنود، كان على رئيس الجمهورية ووزير الحربية بصفة خاصة اتخاذ خطوات مناسبة تتفق والموقف السوفييتى.

ورأى رئيس الجمهورية أن توقيع معاهدة صداقة وتعاون مع السوفييت تضمن لهم النفوذ والاستقرار.. وبالتالى تحفزهم على الانتظام فى تنفيذ صفقات الأسلحة التى سبق توقيعها.. وتلبية احتياجات القوات المسلحة من الأسلحة والمعدات والذخائر وقطع الغيار. إلا أن السوفييت واصلوا أسلوبهم المفضل فى المماطلة.. هذا النهج السوفييتى أثر على الترسانة العسكرية المصرية.. وكان تأثيره أكثر وضوحا على واضعى خطط العمليات للمعركة المقبلة.

ولم تكن القيادة الجديدة لتوافق على خطط عسكرية لا تستند على إمكانيات موجودة.. أى أن الخطط يجب أن توضع بشكل يتفق وما هو موجود فعلا من أسلحة ومعدات وذخائر.

وكان الخبراء والمستشارون السوفييت يشاركون فى وضع الخطط وبرامج التدريب. فكل قائد ابتداء من الوزير حتى قائد الكتيبة كان بجواره مستشار سوفيتى وكانت احتياجات الخطة توضع فى قائمة احتياجات يحملها معه المفاوض المصرى ابتداء من رئيس الجمهورية إلى رؤساء الوفود المتخصصة وهم يتفاوضون مع الجانب السوفييتى.

كان هناك قصور فى عمليات التسليح، واختار وزير الحربية الفريق أول محمد صادق أن يصارح به القوات المسلحة وفى كلماته التى كان يلقيها خلال زياراته، كان يحيط القوات المسلحة علما بحقيقة الموقف، كما كان ينتقد سياسة السوفيت ويعلن رفضه لهذا المنهج.

هذا التصدع فى العلاقات المصرية ـ السوفيتية كان من الفقرات الرئيسية فى الكلمات التى أكتبها لرئيس الجمهورية. وبما أننى كنت أشارك فى كتابة خطب الوزير.. فقد كانت موجودة دائما.. ومدعومة بالمعلومات التى يطلب الوزير الكشف عنها.

وبعد عدة أشهر – أى فى بداية عام ١٩٧٢م – تلقى السادات تقريرا إيجابيا عن تأثير الخطب التى ألقاها خلال لقاءاته بالقادة والضباط والجنود من سيد مرعى رئيس مجلس الشعب عقب زيارته للجبهة.. فشعر بالرضا.. وطلب من الوزير توجيه الشكر لى.

وابتداء من عام ١٩٧٢م كانت حملة الفريق أول صادق المعادية للوجود السوفييتى تنتقل من نجاح إلى نجاح.. ومع كل خطوة كان غضب القوات المسلحة يتضاعف. وفى الوقت

نفسه لم تكن القيادة السوفيتية قادرة على تغيير سياساتها. كان الجمود هو العامل الأقوى داخل «الكرملين».

والأسوأ أن مطالباتهم وإلحاحهم لتحويل مرسى مطروح إلى قاعدة جوية وبرية وبحرية تتردد على ألسنة جميع كبار القادة فى موسكو والوزراء وكبار المسئولين الذين يزورون القاهرة.. والخبراء والمستشارون الموجودون بمصر والسفير السوفييتى.

وبالرغم من زيارات رئيس الجمهورية المتعددة والوفود العسكرية والمدنية الزائرة لموسكو. والوفود السوفيتية القادمة للقاهرة، وساعات التفاوض الطويلة، لم يتغير النهج السوفييتى.

وجاء الإعلان الصادر عقب لقاء كل من الرئيس الأمريكى نيكسون والزعيم السوفييتى بريجنيف فى موسكو. بداية صيف عام ١٩٧٢م وتحديدا فى ٢٠ مايو ١٩٧٢م والذى نص على فرض الاسترخاء العسكرى على الشرق الأوسط والصراع العربى الإسرائيلى، ليشكل صدمة لصانع القرار المصرى.. فقد كان البيان يعنى استمرار حالة اللاحرب واللاسلم.

كانت القاهرة تمضى على طريق الاستعداد للمعركة بكل جدية.. وكان القائد الأعلى قد أقر التخطيط لمعركة هجومية لاقتحام القناة وتدمير خط بارليف الحصين وإنشاء رءوس كبارى شرق القناة بعمق يتراوح بين ٨ إلى ١٢ كيلو مترا.. وصد الهجمات الإسرائيلية المضادة.. وتكبيد العدو خسائر مادية وبشرية مؤثرة اعتمادا على الإمكانيات المتاحة، وتطوير الخطة مع أى زيادة فى هذه الإمكانيات.

وأدى غضب السادات، من مماطلة السوفييت، ومن البيان الصادر عقب قمة نيكسون – بريجنيف الخاص بالاسترخاء العسكرى، وأمام حالة الغضب العسكرى المصرى من مواقف السوفييت، وسلوك الخبراء والمستشارين بكل ما يتصف به من صلف واستعلاء وغطرسة، وزيادة القوات السوفيتية الموجودة فى قواعد برية وبحرية وجوية إلى ما هو أكثر من ٢٤ ألف فرد، وبما شكل قوة احتلال، والأهم كان غضب الشارع المصرى الذى عبر عن نفسه بقوة.. قرر السادات إنهاء مهمة الخبراء والمستشارين وطرد القوات السوفيتية من مصر.. وتم إبلاغ السفير السوفييتى بالقرار يوم ٨ يوليو ١٩٧٢م على أن يجرى التنفيذ خلال أسبوع.

وفعلا تحررت مصر من الاحتلال السوفييتى يوم ١٦ يوليو ١٩٧٢م.

وفى اليوم التالى لقرار إنهاء مهمة الخبراء والمستشارين السوفييت، التقى الفريق أول صادق بالأستاذ محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الأهرام وكان من أهم ما قاله: «إننى

سأدفع ثمن هذا اليوم» فرد عليه الأستاذ هيكل قائلا: إن ما تقوله غير معقول.. أفى هذا اليوم الذى يعد انتصارا مصريا - كنت من أبرز أصحاب الفضل فيه - تتحدث عن دفع الثمن؟!

إن السادات يقدر وبلا شك دورك وهدفك الذى شكل دعما لسياسته تجاه السوفييت. وهذا التقدير سينعكس على مواقفه منك.. وعاد صادق ليقول لهيكل: إنك تعرف السادات منذ عام ١٩٥٢م أما نحن «أى صادق وزملاء الدراسة بالكلية الحربية» فنعرفه منذ كنا معا بالكلية.. سنوات طويلة عشناها معا.. منذ بواكير الشباب وحتى الآن.. وتجارب بلا حصر.. فرشت طريقنا إلى الحاضر.. وكل منا يعرف جيدا كيف يفكر الآخر. وطبقا لما أعرفه عن السادات سأدفع الثمن ولن يتأخر ذلك عن نهاية هذا العام.

ورد الأستاذ هيكل: «أنا لا أوافقك الرأى»..

وواصلت أجهزة القيادة العامة الاستعداد والتخطيط للحرب.. وانطلق السادات على هذا الطريق بعد أن تخلص من مراكز القوى التى كانت تتجه إلى مجرد معارك استنزاف محدودة. وكان طرد السوفييت من أهم المؤشرات إلى عدم قدرة مصر على إشعال حرب بالمنطقة؛ انطلاقا من الاقتناع بأن السوفييت هم القوة العالمية القادرة على دعم أى استعداد عسكرى مصرى من أجل الحرب ومساندة هذا الاستعداد سياسيا.

كانت إسرائيل والولايات المتحدة ومعظم الدول الأوربية على اقتناع بأن مصر لن تتوجه للحرب وحدها أبدا.

❑❑❑

## الفصل الخامس

## من أخطاء وخطايا القذافى

جـاء اللقاء المصرى الليبى هذه المرة عاصفا منذ اللحظة التى التقى فيها الوفدان، الأول برئاسة الفريق أول محمد صادق نائب رئيس الوزراء ووزير الحربية والإنتاج الحربى القائد العام للقوات المسلحة، والثانى برئاسة العقيد معمر القذافى.

كانت المباحثات قد بدأت بقاعة اجتماعات بمطار بنغازى عقب وصول الطائرة الخاصة الليبيـة التـى أقلت الوفد المصـرى من القاهرة.. وقبل الحديث عمـا جرى، يجدر بنا أن نتحدث ولو قليلا عن المعلومات المرتبطة به وقادت إليه..

كانـت مصر تسـتعد لمعركة هجوميـة لتحرير أرضها المحتلة فى سـيناء فى ظل تفوق إسـرائيلى عسـكرى كمى وكيفى، ومماطلة سـوفيتية تسـتهدف الضغط على صانع القرار للحصـول علـى المزيد من القواعد العسـكرية البرية والبحرية والجويـة.. ومن الامتيازات والتنازلات التى تنال من سيادة مصر.

وفى خريف عام ١٩٧١م بدأت القيادة المصرية تتطلع للحصول على بعض احتياجاتها العسـكرية من خارج المعسـكر الشـيوعى. وكان هناك مـن هو على اسـتعداد لتوفير هذه الاحتياجات إذا ما توفر التمويل.

وبعد مباحثات سرية، تمكنت القيادة المصرية من عقد صفقة صغيرة نسبيا، ولكنها تلبى احتياجا مهما للقوات المسلحة.

وبدأ الرئيس أنور السادات مساعيه لتوفير التمويل المطلوب من خلال الاتصال بعدد من الحكام العرب.. وقد اتفق خلال هذه المسـاعى مع العقيد القذافى على المساهمة بمبلغ ٢٠ مليون جنيه استرلينى.

وأمام ضغوط الاقتراب من شهر رمضان، والحاجة لتوفير سلع ومواد تموينية تسد نقصا فى السـوق، أرسل السـادات الدكتور عزيز صدقى رئيس مجلس الوزراء إلى ليبيا للحصول على مساهمة مالية تكفى لتوفير هذه الاحتياجات التموينية. وفعلا سافر عزيز صدقى وعاد بعد أن أنجز مهمته بنجاح.

وبما أن للفريق أول صادق علاقات طيبة بالقيادة الليبية، فقد تصور السادات أن إرساله إلى ليبيا قد يساعد مصر فى الحصول على المبلغ المتفق عليه من أجل صفقة السلاح، بالرغم من أن ليبيا قد زودت عزيز صدقى بمبلغ مساو للمبلغ المطلوب للسلاح.

أى أن السادات تصور أن فى إمكانه الحصول على تمويل لصفقة السلاح بعد أن حصل فعلا على تمويل يكفى لشراء احتياجات مصر التموينية.

وسافر الفريق أول صادق على رأس وفد محدود العدد إلى ليبيا دون أن يعلم شيئا عن مهمة عزيز صدقى فى ليبيا والتى بدأت وانتهت قبل سفره بأيام.

وبعد مراسم الاستقبال وترحيب العقيد وعدد من القادة الليبيين بالفريق صادق، بدأت المباحثات بأن أوضح رئيس الوفد المصرى الهدف من الزيارة. وبعد أن استمع القذافى لما قاله صادق، قال بانفعال واضح: «إنى لا أستطيع أن أطعم مصر وأشترى لها السلاح فى نفس الوقت. لقد جاء عزيز صدقى منذ أيام وأخذ ٢٠ مليون جنيه استرلينى كنت قد اتفقت مع السادات على دفعها من أجل صفقة سلاح. ولكن رئيس الوزراء أخبرنى أن مصر فى حاجة إلى هذا المبلغ لتوفير احتياجات رمضان.. والآن تطالبنى مصر بدفع المبلغ مرة أخرى لشراء سلاح.. هذا غير معقول».

وقبل أن يستكمل القذافى حديثه، وقف الفريق أول صادق وطلب من مدير مكتبه العقيد جمال حسن إعداد الطائرة للعودة إلى القاهرة.

وقبل أن يهم بالانصراف خاطب القذافى قائلا: «لاحظ يا معمر أنك تتحدث عن مصر والشعب المصرى.. وأنك تخاطب رئيس وفد مصرى.. وكل ما قلته لا يمكن قبوله بأى صورة من الصور.. ثم كيف تتصور أن ٢٠ مليون جنيه استرلينى تعطيك الحق لكى تقول ما قلت؟!.. ما قلته يا معمر مرفوض جملة وتفصيلا».

وعندما حاول القذافى الاعتذار هو وكل أعضاء الوفد، قال صادق إنه يرفض الاعتذار. وخرج من القاعة باتجاه الطائرة، وحاول الوفد الليبى منعه من مواصلة السير، ونجحوا فى ذلك بعد أن تحلقوا من حوله.. ولم يتوقفوا عن إبداء الأسف وعبَّروا جميعا عن مشاعرهم الأخوية بل والأبوية له.. فهم يرونه قدوة عظيمة لهم.. وأستاذا ومعلما يستشيرونه.. أما تقديرهم الكبير لمصر فهم يؤكدونه ويكررونه فهى وطنهم ومظلتهم التى يحتمون بها.

.. وأمام طوفان المشاعر والاستغراق فى الاعتذار، عاد الفريق أول صادق إلى قاعة

الاجتماعات وطلب من الجميع عدم الحديث فى المهمة التى جاء من أجلها.

ورأى أبوبكر يونس وزير الدفاع والخويلدى الحميدى الموافقة على الاقتراح.. ثم توجهوا بالرجاء لرئيس الوفد المصرى لقبول دعوتهم لتناول طعام الغذاء معهم.. ووافق الرجل.

وأثناء تناول الطعام طلبوا منه أن يحدثهم عن الموقف الحالى لخطوات الاستعداد للحرب.. واقترحوا عليه أن يقضى الليلة فى ليبيا كما كان مخططا ليتمكنوا من استشارته فى بعض القضايا. وانتقلوا للإشادة بكفاءته فى إدارة أزمة الانقلاب الشيوعى فى السودان.. ولم يبد اعتراضا عندما فتح العقيد القذافى فمه لأول مرة بعد الأزمة التى أثارها؛ ليكرر اعتذاره ويشكر صادق على موافقته على البقاء للتشاور معهم.

وتوجه الجميع إلى الفندق.. وصعد الفريق أول صادق إلى غرفته على أن يعود للقائهم بعد ساعة. وعندما هممت بالصعود إلى غرفتى أمسك القذافى بذراعى وسألنى وهو يبتسم: إلى أين؟!.. وأجاب أبوبكر يونس بالنيابة عنى قائلا: «إنه يريد أن يبعث بخبر الاجتماع وما جرى فيه لـ «الأهرام».. ورأيت أن عدم التعليق على ما قال هو الأمر الأنسب.. وأمام صمتى قال القذافى: إننا سننتظر هنا إلى أن يحل موعد نزول الفريق صادق. ثم سألنى: هل تبقى معنا؟!.. وعلى الفور قلت: إنه شرف لى أن تدعونى للبقاء معكم.

وانتقلنا جميعا إلى كافيتريا بالدور العلوى بالفندق بعد إخلائها من الموجودين وتأمينها.. ومباشرة سألنى عما إذا كنت مقتنعا أن الرئيس السادات يستعد فعلا للحرب.. أم أن الأمر مجرد مناورة لاستهلاك الوقت؟!.. فأجبته قائلا: إن أحدا فى مصر لا يملك الإجابة عن هذا السؤال إلا الرئيس السادات.. وواصلت قائلا: لقد طلب الرئيس فى أول اجتماع له بالمجلس الأعلى للقوات المسلحة من القادة المجتمعين. تحرير ولو عدة سنتيمترات شرق القناة، وكان ذلك فى أكتوبر ١٩٧٠م ولكن إعداد الخطط لم يبدأ بشكل جدى إلا بعد أحداث مايو ١٩٧١م وهناك على اتساع رقعة مصر تجرى عمليات تدريب جادة ومكثفة لكل المستويات من كبار القادة حتى الجنود.. فقال: إننى أتابع ذلك، ولكننى لا أعرف مدى جدية السادات. وربما لو كان عبدالناصر موجودا لاقتنعت بجديته، وأعتقد أنه كان يستعد للحرب، وأن الخطط كان الفريق أول محمد فوزى قد انتهى من وضعها، وصدق عليها الرئيس.

وانتظرت أن يواصل الحديث، ولكنه أراد أن يسمع تعليقا أو تعقيبا. فقلت له: إننى سمعت الكلام نفسه من الفريق أول فوزى.

وأمسك بطرف خيط آخر.. وقال: كان فوزى مقتنعا أن عبدالناصر زعيم وقامة كبيرة وكثيرا ما قال: إن الميثاق وكتاب فلسفة الثورة نظرية كاملة.. وإن خطبه مدرسة سياسية. فقلت له: حسناً يا سيادة العقيد.. طالما أن الميثاق وكتاب فلسفة الثورة نظرية سياسية، فهل يمكن مقارنة ذلك بنظرية ماركس مثلا؟!.. فقال: لو طال العمر بالرجل لتحول الميثاق إلى نظرية تنهل من منهل الاشتراكية العلمية.

ثم انتقل للحديث عن أسطورة العنف التى أحاطت بالفريق فوزى، وقال إنه سمع كثيرا أن الرجل كان عنيفا وقاسيا فى عقوباته. فأوضحت له أننى مقتنع أن فوزى كان هو القائد الذى لملم القوات المصرية المسلحة التى عادت مبعثرة من سيناء عقب الهزيمة فى يونيه ١٩٦٧م وبدون الشدة التى تميز بها وذاكرته القوية التى ساعدته على تذكر أسماء الأغلبية العظمى للضباط الذين تخرجوا من الكلية الحربية طوال سنوات عمله الطويلة مديرا لها، وقدرته الهائلة على المتابعة، ما كان يمكن النجاح فى هذه الخطوة الضرورية لإعادة بناء القوات المسلحة.

فقال القذافى: إن الخطأ لا يقوم إلا بالعنف.. وهذه هى الوسيلة الوحيدة لتعليم الناس الصواب!!

وواصل الحديث وكأنه أراد أن يوضح أفكاره بصورة أفضل حول هذه النقطة فقال: لو لم يسلك عبدالناصر هذا الطريق، لما استطاع أن يحكم مصر. وكان حكيما عندما قرر إعدام كل من خميس والبقرى فى بداية الثورة. وكان أكثر حكمة عندما ضرب الإخوان المسلمين.

وسألته: هل تأكدت سيادتك أن العنف كان هو طريق عبدالناصر؟!.. وأدرك الرجل أن الإجابة محاطة بالمحاذير، فلو أجاب بالإيجاب، فقد تحمل الإجابة إدانة لمعبوده، ولو قال بعكس ذلك، فكأنه ينكر كل ما قاله عن العلاقة بين العنف وتصويب أخطاء الناس. فانتقل ليسأل عن الوحدة العربية، ولكنه لم ينتظر الإجابة. وبدأ هو فى الإجابة عن سؤاله فقال: إن الوحدة هى الحلم العربى.. وإن طريق الوحدة الوحيد يبدأ بالوحدة بين مصر وليبيا.. وإن الخطوة الأساسية كما يراها هى إعداد الشعب عسكريا لكى يبدأ الزحف لإزاحة الحكام، وإقامة الوحدة بين الشعوب العربية. وقال: إنه سيلجأ لهذا الطريق إذا لم تتحقق الوحدة مع مصر عن طريق الاتفاق بين البلدين!!

**ملحوظة:**

لقــد حاول القذافى تنفيذ هذه الخطة.. واقتحمت قوافل من الســيارات الليبية الحدود المصرية.. وتمكنت السلطات من وقف تقدمها بالقرب من مرسى مطروح.

وانطلق معمر فى الحديث.. وهدد الحكام العرب.. واتهمهم إما بالتخاذل أو بالانهزامية. أو بالخيانة ولم يستثن أحدا.

وبعد أن انتهى من ســب الحكام، انتقل ليســب الصحفيين فقال إنهم أدوات الرجعية العربيــة، واتهم عددا كبــيرا منهم بتقاضى أموال من الحكام العــرب، وأنهم فى ليبيا قد أعلنوا أسماء الذين كانوا يتقاضون أموالا من نظام السنوسى.

ولم أتركه ليواصل هجومه الظالم لعدد كبير من الصحفيين. وأكدت له أنه يصب غضبه علــى مَــن لا يعرفهم، ولو اقترب مــن الصحفيين لتبين أن الأغلبية تعــرف معنى احترام الكلمة والقلم، الذى أقسم به المولى فى كتابه الكريم. وتحولت للهجوم وقلت له: إن نظامه فتح خزائن ليبيا من جديد أمام هؤلاء الذين تعاونوا مع نظام الملك السنوســى بعد فترة من التعالى على هذا النهج.. وبصراحة يحســد عليها قــال معترفا: نعم بدأنا ندفع لعدد كبير من جديد.. ليس فى مصر فقط، بل وفى دول عربية كثيرة، وذلك بعد أن اكتشفنا أننا فى حاجة لأقلامهم وصحفهم، للدعاية لأفكارنا وثورتنا.. وتوقف ليقول: سأفشــى لك ســرا: سنشــترى صحفا وسننشئ قنوات تليفزيونية وإذاعات ودورا للنشر، تصدر صحفا ومجلات فى أى مكان نستطيع أن نصل إليه للدعاية لما نؤمن به!!.. وسألته: وأين موقع مصر من هذا التوجه؟!.. فقال ستكون هى الهدف الرئيسى.. فمن يكسب الرأى العام المصرى يقطع أكثر من نصف الطريق نحو أهدافه!!

وأقول له: لقد سبق أن تحاورنا، أبوبكر يونس وأنا حول هذه القضية منذ عدة شهور فى أعقاب انتهاء المناورة الكبرى أثناء عشاء بفندق البحر المتوسط بطرابلس فى سبتمبر ١٩٧١م فسأله: ولماذا لم تخبرنى يا بكر بهذا الحوار؟!.. فرد أبوبكر قائلا: لقد عرضت عليه قائمة بأسماء الصحفيين المصريين والعرب الذين تقاضوا أموالا من نظام الملك السنوســى، فتركها على المائدة دون أن يتصفحهـا.. مما أصابنى بدهشــة شــديدة.. فكيف لا يدفعه الفضول إلى معرفــة هــذه الأسماء؟! وأذكر أنه قال: إن ثورة يوليو ١٩٥٢م نشــرت قائمة مماثلة خلال

الأشهر الأولى لها للذين تقاضوا أموالا من القصر الملكى ووزارة الداخلية. وحكى عن الأسماء التـى أزاح عنهـا صلاح نصر مدير المخابرات العامة فى مصـر أثناء محاكمته عام ١٩٦٧م والتى تضمنت العشـرات من الصحفيـين اللبنانيين والعرب وعددا من الصحف والمجلات العربية. ثم قال إن النظام الذى سـبق أن فضـح الصحفيين الذين كانوا يتقاضون أموالا هو النظـام نفســه الذى قدم أموالا للآخرين. كما ذكر أن الأمـوال التى دفعها نظام عبدالناصر كانت أكثر بكثير مما دفعه النظام الملكى.

وفى النهاية قال: إنكم تكررون ما فعلته مصر من قبل.. تفضحون الصحفيين الآن، ثم تلجأون لنفس الأساليب فيما بعد؛ عندما تتبينون حاجتكم لمن يدافع عنكم وينشر مبادئكم.

فعقب القذافى قائلا: لقد صدقت توقعاته. أليس كذلك يا بكر؟!

ويتوقف الحوار مع وصول الفريق أول صادق بعد أن قضى سـاعة فى غرفته.. وعرفت فيما بعد أنه اتصل بالســادات، وأحاطه علما بما قاله معمر بعد أن عاتبه على عدم إبلاغه بزيارة عزيز صدقى لليبيا التى كانت سببا فى تلك الأزمة.

واسـتقبله الوفد الليبى بفرحة حقيقية.. وأخبروه أنهم لم يغادروا الفندق.. وجلسوا فى انتظـاره.. وتوجه بالحديث إلى معمر: هل أجريت مع عبده حديثا للنشـر؟!.. فأجاب: سأجلس معه لنتحدث قبل نهاية هذه الزيارة.

وأثناء استعدادهم للتوجه إلى خيمة القذافى خارج بنغازى، استأذنت فى عدم الانضمام لهم، إلا أن الوفد الليبى أصر على أن أرافقهم.

وهنـاك فـى الخيمة طرح العقيـد قضيته التى فاجأت الوفد المصـرى - وإن لم تفاجئ صـادق - لأنه سـبق أن عاصر القذافى وهـو يطرحها على الرئيس جمـال عبدالناصر من قبل. وها هو يعود لطرحها من جديد على أمل الفوز بموافقة كل من وزير الحربية ورئيس الجمهورية. لقد طلب قوة بحرية لحماية الشواطئ الليبية، وأن تكون تحت إمرته. وحاول إقنـاع الفريق صـادق بالأمر بحجة أن هذه القوة ضرورية لتدريـب القوات البحرية الليبية الوليـدة التى يجرى بناؤها بالتعاون مع السـوفييت.. وأوضح له وزير الحربية أن القوات البحرية المصرية كلها تجرى تدريباتها الآن اسـتعدادا لمعركة مقبلة، ولا يمكن للقيادة أن تفكر فى الاستغناء عن أى قطعة منها. فقال معمر: إذن سأتحدث أنا فى الأمر مع الرئيس السـادات؛ لأن حاجة ليبيا شـديدة لمثل هذا التعاون، ويمكن للقيادة المصرية استدعاء هذه القطع قبيل بدء الحرب.

ويعـود الوفـد المصرى إلى القاهرة صباح اليـوم التالى. وكانت مفاجـأة أن أتلقى مكالمة تليفونيـة عقب وصولى من مكتب الرئيس السـادات، ليخبرنى أن الرئيس يطلب حضورى إليه، وأن سـيارة فى الطريق إلى منزلى الآن. فقلت لمن يحدثنى: سـأكون مسـتعدا خلال دقائق.

وفى البداية سـألنى عما إذا كنت قد اسـتمتعت بالزيارة؟ فأجبته بالإيجاب. فاستفسر عما جرى.. فأخبرته بما سمعته وشاهدته.. فقال: إن معمر قد تجاوز.. وموقف صادق هو الموقف الذى يجب أن يقفه أى مصرى.

وتوقعـت أنـه يريد أن يعرف النتيجة التى انتهت إليهـا الزيارة حتى ولو كان صادق قـد أبلغه بكل التفاصيل.. فقلت له: لقد اختار سـيادة الوزير أن يغلق ملف تمويل صفقة السـلاح، وألا يواصل مناقشـة الأمر بعد أن قال معمر ما قال، وقد طلب منهم ذلك صراحة بعد أن أقنعوه بالبقاء معهم، وقد استجابوا لطلبه.

وحكيت له، كيف حاولوا التعبير عن أسفهم لما جرى، وأنهم ظلوا فى الفندق فى انتظار عودة الوزير الذى صعد إلى غرفته للاستراحة لمدة ساعة.

وقصصـت عليه قصة الحوار معهم حول الصحافة والصحفيين طوال فترة الانتظار، وأن معمر قال: إنهم يدفعون للصحفيين من مصر ومن مختلف دول العالم العربى لنشر مبادئهم، فطلـب مزيدا من التفاصيل، وسـألنى عما إذا كان القذافى قـد عرض على العمل فى هذه المشاريع، فقلت له: لم يقدم لى عرضا، لأنه سبق أن عرض على بإلحاح أن أعمل مستشارا له خلال المناورة الكبيرة التى قامت بها القوات المسـلحة الليبية، فاعتذرت، فتحدث مع الفريـق أول صادق لإقناعى بقبول العمل معه، فقـال له، دعك منه، فهو لن يقبل بالعمل خارج مصر.

وبدأ الرئيس السـادات يتحدث عن الفريق أول صادق وعن وطنيته وصلابته فى الحق. ورجولته.. وبدأ يعدد مزايا الرجل وسجاياه.

فقلت لنفسى هذه رسالة طمأنة لصادق؛ تأتى فى وقت شعر فيه بالخشية من أن يكون قد أغضبه وتسـبب فى هذا الموقف المحرج الذى تعرض له على يدى القذافى خلال هذه الزيارة. وكان السـادات خاصة بعد أحداث مايو ١٩٧١م وموقف صادق الحاسم ومساندته له فى صراعه الحاسـم مع مراكز القوى التى أدت إلى حماية الشـرعية وحالت دون نجاح

الآخرين فى عزله، لا يشعر بالراحة، ويخشى أن يستثمر صادق سيطرته الواضحة على القوات المسلحة لحسابه، أو على الأقل لممارسة الضغط عليه.

إذن هو القلق والانزعاج من غضب وزير الحربية الذى استدعى هذا اللقاء، وبالتالى فإن رسالة الطمأنة هى الهدف.

ولم أجد بأسا فى أن أروى للرئيس محاولة القذافى إقناع صادق بضرورة إرسال عدد من القطع البحرية المصرية لحراسة الشواطئ الليبية، والاشتراك فى تدريب القوات البحرية الليبية التى يجرى إنشاؤها بالتعاون مع السوفييت. كما طلب منه محاولة إقناع سيادتك بالأمر. وواصلت قائلا: إنها المحاولة الثانية. فقال: إنى أعرف ألاعيب معمر جيدا!!!

❑❑❑

# الفصل السادس

## وسام..ورتبة فخرية من السادات

يمكن القول إن حرب الاستنزاف بدأت قبل أن تتوقف نيران معركة يونيه ١٩٦٧م عندما طلب اللواء صادق مدير المخابرات الحربية من المقدم إبراهيم الرفاعى عبور القناة مع مجموعة من رجاله لإعداد كمين بالقرب من رمانة على الطريق الساحلى لعرقلة تقدم القوات الإسرائيلية التى تتحرك بسرعة من العريش فى اتجاه مضايق سيناء لإغلاق مخارجها من ناحية الغرب، ومنع القوات المصرية المنسحبة من مواصلة انسحابها حتى يتم حصارها داخل المضايق بالطوابير المدرعة الإسرائيلية التى تطاردها من ناحية الشرق.

هذه الخطة التى أطلق الإسرائيليون عليها «المطرقة والسندان»، وكانت القوات المتقدمة من اتجاه الشرق هى المطرقة، فى حين شكلت القوات المتقدمة على الطريق الساحلى السندان، كان الهدف منها تدمير القوات المصرية المنسحبة فيما بين المطرقة والسندان.

وكان هدف اللواء صادق مدير المخابرات الحربية هو تأخير وصول القوات الإسرائيلية لفترة تسمح بعبور نسبة كبيرة من القوات المنسحبة.

وتمكن الرفاعى مع مجموعة محدودة من قوات الصاعقة من عبور القناة، وتحرك بسرعة على الطريق الساحلى من القنطرة شرق إلى منطقة رمانة. وهناك أعد عدة كمائن اعتمد فيها على بث ألغام على جانبى الطريق فى عدة مناطق، ونشر قواته فى مواقع حاكمة ومسيطرة للاشتباك مع القوات الإسرائيلية بعد انفجار الألغام.

ولم تكن القوات الإسرائيلية فى تقدمها تتوقع أى مقاومة بعد أن انهارت القيادة والقوات من جراء أمر الانسحاب الذى صدر شفاهة من القيادة السياسية للقوات الموجودة فى سيناء فى بداية المعركة.

وتابع الإسرائيليون الفوضى التى سادت كل سيناء من جراء عشوائية القرار الذى تجاهل كل ما نصت عليه العلوم العسكرية ومبادئ وقواعد الحرب والأساليب والخطط التى يجب أن تُتبع وتُراعى عند إصدار مثل هذا الأمر.

وكانــت صدمة قائد القوات الإســرائيلية المتقدمة كبيرة عندمــا اصطدم بالكمين.. وأمام انفجــار الألغام والنيران الكثيفة التى تعرضت لها قواته أمر بوقف التقدم والانتشــار.. فقد اســتنتج وجود قوة مصرية كبــيرة لم ترصدها عمليات الاســتطلاع.. وطلب تدخل القوات الجوية لإسكات النيران، والقضاء على هذه القوة قبل أن يواصل التقدم.

**وبسرعة انسحبت قوات الكمين إلى موقع آخر.**

ومر وقت طويل قبل أن تعاود القوات الإسرائيلية التقدم لتصطدم بالكمين التالى، وتعود وتتوقف، وتطلب المساعدة من القوات الجوية.

وهنا يقرر الرفاعى الانسحاب والعودة إلى غرب القناة بعد أن حقق الهدف من مهمته.

وكانت تلك العملية هى بداية العمل ضد القوات الإسرائيلية فى سيناء، ونقطة الانطلاق على طريق رفض الهزيمة، وضرورة الاستعداد للمعركة المقبلة.

ولأن إبراهيم الرفاعى اجتهد فى تنفيذ المهمة، وعمل من أجل تحقيق الهدف المطلوب بصورة تتجاوز ما طُلب منه، فقد كان المطلوب إعداد كمين لعرقلة تقدم القوات الإسرائيلية؛ حتى تتاح الفرصة أمام نسـبة من القوات المنسـحبة للوصول إلى غــرب القناة. ولكنه أعد كمينين.. ودافع عن الأول بالنيران.. أى اشــتبك مع القــوة المتقدمة بالرغم من أنها طابور مــدرع. وأن الحجــم لا يقارن بقوة مجموعتــه المقاتلة محدودة العــدد، لكى يجبرها على التوقف. ثم أعد الكمين الثانى على مسافة من الكمين الأول.

وأدى الكمينان دورهما فى عرقلة تقدم القوات الإســرائيلية لفترة أطول مما توقع اللواء محمد صادق. فقد اســتحق أن يكون المرشــح الوحيد لقيادة القوة الفدائية التى ســتتحمل مسئولية تنفيذ عمليات خلف خطوط العدو.

وقــاد إبراهيم الرفاعى مجموعة من الكوماندوز التى حملت اســم المجموعة ٣٩ قتال.. ونفذ مئات العمليات طوال سنوات حرب الاستنزاف.

وبهــذه العمليات تمكن من تحطيم أســطورة القائد والمقاتل الإســرائيلى الســوبر الذى لا يقهــر، وعمل على تشــجيع القــوات الموجودة بالجبهة على تنفيــذ عمليات ضد قوات الاحتلال.. وهكذا تم التوسع فى عمليات الاشتباك مع العدو.. وأدرك الجميع أن الانتصار ممكن.. بل وضرورى.

وتتوقف معارك الاستنزاف اعتبارا من أغسطس ١٩٧٠م تنفيذا لمبادرة روجرز وزير الخارجية الأمريكى التى قبلتها كل من مصر وإسرائيل.

ويرحل عبدالناصر عن عالمنا، ويتحمل السادات المسئولية بعده، وتشهد مصر صراعا على السلطة بينه وبين مجموعة الورثة ينتهى بانتصار السادات.

ويقرر السادات تكريم المجموعة ٣٩ قتال؛ تقديرا لدورها الكبير وإنجازاتها التاريخية، ويحمل التكريم رسالة إيجابية للفريق أول صادق وزير الحربية الذى شمل هذه المجموعة بالرعاية والإشراف الكامل منذ ما قبل ميلادها وحتى لحظة إقالته فى أكتوبر ١٩٧٢م.

أى أن التكريم للمجموعة من وجهة نظر السادات عملية إرضاء للرجل الذى حافظ على الشرعية، أى حافظ على بقاء السادات مستقرا ومتربعا على مقعد رئيس الجمهورية.

وكان السادات يعلم أيضا أن هذه المجموعة انحازت للفريق صادق ولم تنحز لمحمد فوزى وزير الحربية خلال صراع السلطة، وكان لرجالها دور فى إفساد قسم قادة الصاعقة على الولاء للقائد العام محمد فوزى، وبالتالى حالوا دون انحيازها لمحمد فوزى خلال هذه الأيام الحاسمة، كما أنها القوة التى تحملت مسئولية حراسة وتأمين مبنى وزارة الحربية والقيادة العامة للقوات المسلحة خلال احتدام الأزمة.

وتحدد يوم ١٢ أغسطس ١٩٧١م للتكريم. وخلال مراحل الاستعداد لهذا الاحتفال، رفضت الوقوف فى طابور العرض بالزى العسكرى، وصممت على ارتداء الزى المدنى.. وأشرح للجميع أسبابى ومنطقى.. لقد تطوعت بالصفة المدنية وقبل جمال عبدالناصر تطوعى، وقاتلت مع المجموعة كمتطوع مدنى وبالتالى لا أجد مبررا أو سببا يحول بينى وبين الاشتراك فى الطابور بالصفة نفسها التى تطوعت بها.

ويرفض كل من اللواء عزالدين مختار، نائب مدير المخابرات، واللواء محرز عبدالرحمن مدير المخابرات الحربية الموافقة على طلبى. ويحاول كل منهما إقناعى بارتداء الزى العسكرى، ويؤكدان أنهما لن يسمحا بوقوف مدنى فى طابور عسكرى.. وأعلن لهما أننى لن أشارك إلا بالصفة نفسها التى تطوعت وقاتلت بها.. وحاول كثيرون إثنائى عن موقفى دون جدوى.

ولأن ما أطالب به بالرغم من وجاهته، ووضوح المنطق الذى يستند إليه، مخالف

للمألوف وما جرى عليه العمل، فقد تقرر رفع الأمر إلى المستويات القيادية الأعلى؛ خاصة أن قيادة المجموعة ٣٩ قتال كانت تتبنى وجهة نظرى. وترى أن من حقى أن أشترك فى الطابور بصفتى المدنية.

ويصل الأمر مرة أخرى إلى رئيس الجمهورية القائد الأعلى وهو السادات.. وبعد أن يستمع إلى وجهتى النظر. يحسم الأمر ويقول للقادة العسكريين: إذا كنتم قد قبلتم طلبه للتطوع بالصفة المدنية، فلماذا تنكرون عليه حقه الآن فى الاشتراك فى طابور التكريم بهذه الصفة؟!

.. وفى أول.. وربما آخر استثناء من نوعه فى تاريخ القوات المسلحة.. أشترك فى طابور العرض يوم تكريم المجموعة ٣٩ قتال بالزى المدنى، وأقف مع الرجال الذين قاتلت معهم وشاركتهم حياتهم بقدر ما سمحت به الظروف.. مرتديا البدلة المدنية.. وأحمل على كتفى جهاز تسجيل. ويأتى دورى لأصافح الرئيس.. وأقدم له نفسى وصفتى. فيتوقف مشجعا وشاكرا ما قمت به. ويطلب من الفريق أول صادق وزير الحربية تكريمى.. ومنحى رتبة عسكرية فخرية. ووساما عسكريا. وقال كلاما طيبا كثيرا فى حقى على مرأى ومسمع من الجميع.

وينفذ الوزير طلب الرئيس، ويتم منحى نوط الشجاعة من الطبقة الأولى، ويصدر قرارا بتكليفى برتبة الرائد لأواصل حمل مسئولياتى بالمجموعة ٣٩ قتال بجانب عملى فى جريدة «الأهرام».

ومثلما كان الاستثناء الأول من الرئيس جمال عبدالناصر بقبول تطوعى بالمجموعة ٣٩ قتال ملفتا للنظر ومؤثرا بعمق فى حياتى ومسيرتى الصحفية، فإن الاستثناء الثانى بقبول وجودى فى طابور عسكرى بالزى المدنى فى مناسبة تكريم المجموعة ٣٩ قتال. كان ملفتا للنظر بشكل أوضح لعلنية المناسبة التى تمت تغطيتها إعلاميا. إلا أنه لم يؤثر بالعمق نفسه على حياتى أو على عملى.

والذى لا شك فيه أن الاستثناءين حفرا بعمق.. وتركا تأثيرا قويا وجميلا وفعالا على حياتى.

ولم أكن أعرف وأنا فى طابور التكريم.. أن الرجل الذى أشاد بى وبدورى وأمر بمنحى رتبة عسكرية فخرية ووساما عسكريا.. سيقرر بعد ١٥ شهرا فصلى من عملى!!

هذه الفترة شـــهدت أحداثا كثيرة فرضتها الظروف.. ومنها دورى فى مظاهرات يونيه ١٩٧٢م.

وكان طلبـة الجامعات قد بدأوا الاحتشـاد والتظاهر للمطالبـة بالحرب.. وواكب ذلك انضمام نخبة من الكُتَّاب والمفكرين والمثقفين والصحفيين للجموع المطالبة بالحرب.. ووقعوا بذلك وثيقة أرسلوها للرئيس السادات.

وفوجـئ الموجـودون داخل مبنى «الأهرام» الجديد بشـارع الجلاء بجمـوع المتظاهرين تحتشد أمام المبنى.. وتهتف هتافات معادية.. منها: «هيكل.. هيكل.. يا خدام.. يا مزيف الأحلام».. بجانب الهتاف بسـقوط الرئيس السادات.. وطالب المتظاهرون بالحرب لتحرير الأرض المحتلة ونصرة الثورة الفلسطينية ومواجهة المخططات الأمريكية والإسرائيلية.

كان الحشـد يمتد من أول شـارع الصحافة وحتى نهاية مبنى مجمع المحاكم المجاور للأهرام بشارع الجلاء وفقا لتقدير البعض.. كان هناك ما يقرب من ١٠ آلاف متظاهر على رأسهم الطلبة.. ولكن كان هناك مواطنون وعدد لا بأس به من «فئران الشوارع».

كان الصخب عاليا أمام المبنى الحديث بواجهاته الزجاجية الأنيقة.. ومن نوافذ المبنى المطلـة على شـارع الجلاء اتجه كثير مـن الموجودين داخل المبنـى بأبصارهم إلى الخارج لاستكشاف الأمر ومعرفة ماذا يجرى.. فتبينوا وجود هذه الحشود الغاضبة المزمجرة.

وتوقفـت عجلـة العمل علـى الأقل بالأدوار المخصصـة للتحرير.. وأبطـأت فى باقى الإدارات. واتجهـت أعداد كبيرة من الكُتَّاب والصحفيين والمديرين والمسـئولين والإداريين والعمال إلى الدور الأرضى.. وتجمعت فى بهو المدخل الرئيسى.. ومن خلف زجاج الواجهة وقفوا ينظرون إلى جموع المتظاهرين وهم يزأرون فى سخط.

ومع استمرار المتظاهرين فى ترديد هتافاتهم التى تصك الأسماع، وتزايد أعداد اللافتات المرفوعة والتى تحمل شـعاراتهم ومطالبهم، بدأ القلق ينتاب أبناء أسرة «الأهرام» وتحسبوا من احتمالات تطور الموقف تطورا غير محسوب.

وعندمـا تلفتوا حولهم بحثا عن مخرج، تبينوا أنه لا مخرج من هذا الموقف العصيب.. وكان المسـئولون بالأهرام يعلمون أن الأسـتاذ هيكل ليس موجودا بالأهرام ليتولى التصرف ومواجهة هذه المشـاكل بمـا هو معروف عنه مـن حنكة وخبرة وحكمـة.. وبالتالى فإنهم مطالبون بحمل المسئولية.. ولكن كيف؟!.. ولم يكن هناك من يملك الإجابة.

وتعلق الجميع بالأمل فى أن تنفرج الأمور بشكل تلقائى، أو أن تتحرك المظاهرة بعيدا بعد أن حققت هدفها. ولكن هذا الأمل بدأ يتسرب من بين أيدى الجميع مع استمرار المتظاهرين فى أماكنهم، ومواصلتهم ترديد نفس الهتافات.

وهذه المظاهرة لم تكن سوى امتداد واستمرار لموجات التظاهر التى عادت مجددا إلى شوارع القاهرة وباقى محافظات مصر بعد أن ضعفت قبضة السلطة نتيجة لنكبة يونيه ١٩٦٧م. وقبل ذلك كانت المظاهرات قد اختفت تماما فيما عدا تلك التى تتحرك بتعليمات من أهل الحكم بعد أن استتب الأمر للرئيس عبدالناصر.. وكانت جملة السياسات تضع أمن وحماية النظام فى المقام الأول. وكانت بداية انطلاق موجات المظاهرات من جديد فى فبراير ١٩٦٨م. وقد خرجت المظاهرة الأولى بتخطيط وموافقة النظام؛ بهدف امتصاص غضب المواطنين من نتائج محاكمة قادة الهزيمة، ولكنها سرعان ما تحولت إلى مظاهرات معادية للنظام وسياساته، وتجددت المظاهرات فى نوفمبر ١٩٦٨م.

ولجأ النظام إلى أساليب القمع لوقف هذه الموجة.. ولم ينس أهل القمة والسلطة أن رئيس الجمهورية كان قد أمر بإعداد طائرة للتوجه فى رحلة إلى خارج مصر أثناء مظاهرات فبراير ١٩٦٨م وذلك قبل أن تتمكن السلطة من تفريقها.

وعندما تولى السادات السلطة بعد وفاة عبدالناصر. ونجح فى إزاحة مجموعة الورثة خلال عاصفة مايو ١٩٧١م، اشتعلت نيران الكراهية فى معسكر القوى اليسارية.. ولم يغفر قادة هذه القوى للسادات اجتراءه على الاصطدام بفريق عبدالناصر وسدنة نظامه، والزج بعدد منهم فى السجون، بالإضافة إلى عدد من قيادات اليسار بالرغم من أنه استعان بعدد من الشيوعيين للعمل كوزراء فى الحكومات التى تشكلت طوال سنوات حكمه الأولى.

وبجانب هذا كانت قوى اليسار ترى فيما أقدم عليه السادات حرمانا لها من إمكانية السيطرة على الأوضاع فى مصر ولم يكن بينهم «أى بين» اليساريين وتحقيق حلمهم فى اعتلاء قمة السلطة سوى خطوة أو بضع خطوات.

وفى بداية عام ١٩٧٢م رأت قيادات قوى اليسار أن الظروف قد أصبحت مواتية للضغط على السادات، وزعزعة الاستقرار فى محاولة لتغيير خططه أو عرقلتها على الأقل.. والأهم لتشكيك المواطنين وقوى أخرى بالخارج فى قدرته على قيادة مصر.

وهــذه الظــروف المواتية كما تصوروها. برزت بعد انتهاء عــام ١٩٧١م الذى أطلق عليه الســادات عام الحســم دون حســم. وكان الحســم يعنى إطلاق الحرب من عقالها لتحرير الأراضى المحتلة.

ويــوم ١٣ يناير ١٩٧٢م ألقى الســادات خطابا أعلن فيــه أن الضباب حال بينه وبين تنفيذ وعده بالحسم، ثم أوضح أن اندلاع الحرب بين الهند وباكستان فى ديسمبر ١٩٧١م ورفض الســوفييت فتح جبهة ثانية فى الوقت نفسه لانشغالهم بمساندة الهند فى معركتها كان وراء تأجيل الحسم.

ووجــد قادة اليســار فى طلبة الجامعــات بغيتهم من أجل فتح جبهــة معادية للنظام الســاداتى. وفعلا بدأت المجموعات اليســارية داخل الجامعة فى العمل.. وتشكلت لجنة وطنية للطلبة بعيدا عن اتحادات الطلبة لقيادة الحركة الطلابية.

وفى خطوة تالية نظم الطلبة أســبوعا للثورة الفلســطينية فى بداية عام ١٩٧٢م لإثارة مشــاعر الطلبة وتأجيج حماسهم، والدعوة للمعركة، ومساندة الثورة الفلسطينية، ثم بدأت عمليات الاعتصام داخل الجامعات خاصة جامعة القاهرة.

وبعد أن أخلت قوات الأمن جامعة القاهرة من المعتصمين، اتجه الطلبة لاحتلال ميدان التحرير لتوســيع نطاق المواجهة مع النظام وإثارة حماس الشــارع المصرى، وكسب تعاطفه ومحاولة جرجرته للاشتراك فى الصدام ضد النظام.

وقضــى الطلبة والطالبات الذين تجمعوا فى ميدان التحرير ليلة ٢٤ و٢٥ يناير ١٩٧٢م بالميدان، واســتغلوا الوقت فى توزيع المنشــورات والمطبوعات والرسوم الكاريكاتورية على المواطنين من المارة وركاب الســيارات والأتوبيســات. وفى النهاية أنهت قوات الأمن هذا الاحتلال الطلابى للميدان، وعادت المظاهرات على شــكل مجموعات صغيرة ومتفرقة، وما أن يتم فض مظاهرة حتى تبدأ أخرى؛ وبما يشــير إلى وجود مركز عمليات وقيادة متطورة. ولا شــك أن هناك خبرات كانت تعمل فى هذا المركز لتقديم الاستشارة والنصح لمن يقودون حركة الطلبة.

وركزت هذه المظاهرات على مهاجمة الرئيس الســادات والســخرية منه ومن أســرته.. وطالبت بالحرب وبفتح معســكرات التدريب أمام الطلبة وتوفير الســلاح لهم، وفتح الباب أمام المتطوعين.. كما هاجمت الحكومة باعتبارها حكومة هارفارد؛ لأنها كانت تضم ثلاثة

وزراء مــن خريجــى جامعة هارفــارد الأمريكية وهم: عزيز صدقى، ومحمد زكى هاشــم، ومحمد عبدالله مرزبان.

وتضمنت الهتافات الهجوم على عزيز صدقى، وســيد مرعى، وهيكل وموســى صبرى. وهذه المجموعة هى التى ساندت السادات بقوة خلال عاصفة مايو ١٩٧١م.

❑❑❑

# الفصل السابع

## لقاء بين السادات وكمال حسن على

أمـــام أحـــداث يونيـــه ١٩٦٧م قررت قطع الدراســـة والعودة من برلـــين إلى القاهرة فى منتصف شهر يونيه لتحمل مسئولياتى كصحفى وكمواطن فى هذه المرحلة التى تعانى فيها مصر من هزيمة عسكرية مروعة.

وكنت أشـــعر ببعض الرضا لأننى قمت ببعض واجبى تجاه بلدى. حيث نظمت حملة تبرعات بالاشـــتراك مع عدد من الزملاء الدارســـين بألمانيا الشرقية وصلت حصيلتها إلى ٢ مليون مارك ألمانى غربى، تحولت إلى حمولة طائرة من المعدات والأجهزة الطبية.

وبعد العودة وجدت نفسى أمام مجموعة من المهام فى مقدمتها مواساة أسر الشهداء من الأقـــارب والأصدقاء والمعارف وزيارة الجرحى الذين تربطنى بهم علاقات صداقة أو عمل، ثم محاولة طرق أبواب المعلومات لمعرفة ما يمكن من حقائق ما جرى.

وزرت عددا كبيرا من أســـر الشـــهداء وجاء الدور لزيارة المستشفيات والالتقاء بالجرحى والمصابـــين.. ولأن علاقتى كانت وثيقة باللواء كمال حســـن على قائـــد اللواء الثانى المدرع خـــلال المعركة منذ التقيت به أثناء تحمله لمســـئولية رئيس عمليات القوات المصرية باليمن طـــوال الفترة من ١٩٦٣م وحتى عام ١٩٦٥م وتواصلت بعـــد أن انتقل للعمل كمدير لمكتب الفريـــق عبدالمحســـن كامـــل مرتجى قائد القـــوات البرية، فقد قررت أن أبـــدأ زيارته فى مستشفى المعادى للقوات المسلحة.

ولقيـــادة القـــوات البرية حكاية تتطلب التوقف أمامهـــا.. فبعد أن أصدر الرئيس جمال عبدالناصر قرارا بتعيين الفريق أول محمد فوزى مدير الكلية الحربية لسنوات طويلة. رئيسا لأركان حرب القوات المسلحة بدأ العمل للالتفاف من حول القرار وإفراغه من مضمونه.

ومن بين مســـئوليات هذا المنصب قيادة القوات البرية.. ومثل هذه المســـئوليات فى ظل الشـــكوك والعلاقات المتوترة بين كل من الرئيس ناصر والمشـــير عامر، تثير مخاوف المشير ومعسكره لأنها ستؤدى إلى الإخلال بالتوازن الهش بين الرجلين.

وكان الحل الذى توصل إليه المشير ورجاله هو حرمان محمد فوزى من السيطرة على القوات البرية بكل تشكيلاتها بإنشاء قيادة للقوات البرية مماثلة لكل من قيادة القوات الجوية والبحرية.. واختار المشير الفريق عبدالمحسن كامل مرتجى قائدا لهذه القوات.

هكذا كانت تصدر القرارات..

وللقضية خلفيات أخرى.. فالفريق فوزى قريب لسامى شرف مدير مكتب الرئيس والرجل القوى بالرئاسة.. أى أنه سيكون القائد العسكرى الموالى تماما للرئيس ولن يكون أبدا من رجال المشير عامر. ومثل هذه القرابة وهذا الاختيار كانا من أهم أسباب المخاوف التى اعترت المشير ودفعته للتحرك لإحباط المخطط وحرمان عبدالناصر من أى قوة أو قيادة عسكرية يمكنه الاعتماد عليها.

وخلال الأسبوع الثالث من يونيه قمت بزيارة كمال حسن على.. كان الرجل قد أجريت له جراحتان ناجحتان وفقا لتوصيف الدكتور عبدالحميد مرتجى مدير المستشفى الذى التقيت به أولا.. كما أخبرنى الرجل أن حالته الصحية جيدة ومطمئنة جدا، وسرعان ما سيعود لمباشرة عمله. ولم ينس أن يقول لى إنه القائد الأعلى رتبة بين الجرحى والمصابين الموجودين بالمستشفى.

وعندما دخلت حجرته، فوجئ بحضورى.. ولم يكن يعلم أننى سافرت إلى ألمانيا للدراسة. وسأل مستفسرا: أين كنت مختفيا؟!.. فقلت لنبدأ بالاطمئنان عليك أولا وعلى حالتك الصحية. فقال: لقد نجوت من موت محقق سواء أثناء المعركة أو بعد الإصابة أو أثناء الانتقال إلى مستشفى الهلال بالسويس.. كانت رحلة عذاب وآلام لا تحتمل.

وقصصت على الرجل قصة سفرى إلى ألمانيا للدراسة.. وأننى قطعت البعثة الدراسية وعدت منذ أيام. ورويت له كيف كنا نتابع الأنباء من خلال الصحف والإذاعات وقنوات التليفزيون الألمانية.

وطلبت أن أسمع قصة إصابته، فأخذ يحكى منذ لحظة التحرك بقواته إلى قلب سيناء حتى لحظة إصابته فى بطنه يوم ٨ يونيه.. وقال: كان الأمر مأساة تقترب من حدود الملهاة؛ فقد بلغ عدد المهام التى كلفت بها ما يقرب من ١٥ مهمة.. وظللت أتحرك بقوات اللواء على الجنازير لأيام متواصلة دون أى راحة أو استقرار لأكثر من ساعات وأحيانا لدقائق.. كل شئ يمضى بشكل عشوائى.. لا خطط عمليات واضحة.. ولا يوجد هدف محدد دفاعى أو هجومى لدى القيادة تجرى التحركات فى إطاره.

كنت أتسلم المهمة وأتحرك بالقوات. وما أن أصل حتى أتسلم مهمة أخرى.. فأواصل التحرك حتى نصل إلى المنطقة المطلوبة.. وتبدأ القوات فى الانتشار واتخاذ مواقعها.. ثم نفاجأ بمهمة جديدة.. وهكذا.

جبنا سيناء شمالا وجنوبا وشرقا وغربا، وقد قطعت وحدات اللواء أكثر من خمسمائة كيلو متر خلال عدة أيام.

ثم يقول: لقد بدأت قوات العدو البرية المدرعة فى الظهور خلال اليوم الثالث للحرب بعد أن تمكنت قواته الجوية من إخراج القوات الجوية المصرية من المعركة صباح يوم ٥ يونيه، ومن إسكات وتدمير وسائل الدفاع الجوى.. وبعد أن تأكدت القيادة الإسرائيلية من انتشار الفوضى بعد صدور أمر الانسحاب وضرورة تنفيذه خلال ٢٤ ساعة.

ويعلق كمال حسن على: إن الأمر يعد تجسيدا نموذجيا لتخبط القيادة.. أما تنفيذه فهو المستحيل. وكانت النتيجة أن القوات تركت أسلحتها وبدأت تتجه غربا على الأقدام لعدم وجود طرق تكفى تحركات عودة هذه القوات التى استغرق حشدها ما يقرب من ثلاثة أسابيع.

وفى ظل هذه البعثرة الهائلة للقوات، أخذت القوات البرية الإسرائيلية تتقدم باتجاه القناة.

ويوم ٨ يونيه كان اللواء يتخذ مواقعه بممر الجدى حين لاحت بوادر معركة مع القوات المدرعة الإسلائيلية.. وفعلا بدأ الصدام فى ظل ظروف غير مواتية إطلاقا لقوات اللواء الثانى المحروم من المظلة الجوية والموجود فى العراء فى الصحراء. وبالرغم من الإنهاك وهذه الظروف، تمكنت قوات اللواء من تدمير ٦ دبابات وعربة مدرعة خلال لحظات المعركة الأولى.. فى حين لم تخسر سوى دبابتين.

بعدها قررت القيادة الإسرائيلية الخروج من هذه المعركة لإفساح المجال للقوات الجوية لكى تقوم بدورها فى الهجوم على دبابات اللواء وعرباته المدرعة.

ويصف القائد المعركة بالنقطة المضيئة فى تاريخ سلاح المدرعات المصرى بصفة خاصة والقوات المسلحة بصفة عامة.

وعن إصابته قال: كنت أتحرك بالسيارة عندما تعرضت لقصف جوى.. وأدى سقوط صاروخ جو أرض وانفجاره بالقرب من السيارة إلى انقلابها وإصابتى بجرح فى البطن..

شعرت به فى الحال، وقد ظللت راقدا على الأرض لما يقرب من ٢٠ دقيقة إلى حين وصول قائد إحدى الكتائب بسيارته. وقبل نقلى للعلاج حاول فك الحزام، إلا أننى رفضت ذلك لأننى سبق أن قرأت فى أحد الكتب أنه يجب الاحتفاظ بالحزام مربوطا فى حالة الإصابة حتى لا يزداد النزيف الداخلى، وكان هذا الرفض سببا فى بقائى على قيد الحياة.

أما الرحلة إلى السويس فقد كانت محنة وعذابا وألما؛ فكل صعود أو هبوط للسيارة يضاعف من حجم الألم. ولم يكن الطريق ممهدا. ولا آمنا؛ فقد كنا نتحرك تحت سماء سيطرت عليها القوات الجوية المعادية. وانتهت الرحلة بالسويس بعدها تم نقلى إلى هنا.

وأخذ يسأل عن ألمانيا وعن أسلوب معالجة الإعلام هناك للمعركة. وراعيت الاختصار بقدر الإمكان وأنا أقص عليه قصة حملة التبرعات التى بدأت بعد أن قرأت إعلانا على مدخل أكبر المراكز التجارية ببرلين يدعو الألمان للتبرع بمارك لقتل عربى: «ادفع ماركا.. تقتل عربيا».. توقفت أمام قصة المنشور البعثى.. وقلت له: إن مجموعة من الدارسين كانت تضم شخصيات رئيسية من حزب البعث السورى. ومن خلال الاحتكاك المباشر توثقت العلاقة بينى وبين بعضهم. وأمام الثقة التى ربطت بيننا قدم لى أحدهم منشورا صدر فى سوريا فى نهاية صيف عام ١٩٦٦م كان المنشور يقول بوضوح إن عبدالناصر قد انتفخ وتضخم كالبالون، وأنه قد آن الأوان لإفراغ هذا البالون من الهواء لكشف حقيقته للرأى العام فى العالم العربى.

وكان منطقيا أن أصاب بالفزع والصدمة، وأن أستنتج أن المنشور يكشف أن حزب البعث السورى قد انتهى من حبك مؤامرة تستهدف إما القضاء على عبدالناصر، أو تحجيمه أو تشويه صورته جذريا بطريقة تنزع عنه هيبته وحالة الزعامة التى تحكم قراراته وتصرفاته.

وكان لابد من إرسال المنشور للرئيس عبدالناصر؛ على أمل أن يعالج الأمر بما يؤدى إلى إحباط هذا المخطط أو هذه المؤامرة.

وقد أرسلته فعلا خلال شهر مارس ١٩٦٧م.

وبعد تصاعد الحديث عن حشود إسرائيلية عسكرية مدرعة على الحدود السورية. وزيادة حدة التوتر فى المنطقة، تضاعفت خشيتى من أن تكون المؤامرة البعثية قد وجدت حلفاء.. وأن ما يجرى هو المقدمات.

وبعد اندلاع الحرب، ظهرت الصورة واضحة إلى حد كبير.

وقال الرجل: يبدو أنك كنت من أوائل من دقوا أجراس الإنذار، وربما لا تعلم أن هناك جهات كثيرة وشخصيات مهمة متعددة قد دقت أجراس الإنذار طوال الفترة التى سبقت اندلاع الحرب، ولكن القيادة بدا وكأنها لا تريد أن تسمع.

وتوقف كمال حسن على ليخبرنى أن السيدة جيهان السادات قد زارته.. وقضت وقتا طويلا معه. وقال إنه تحدث معها بصراحة ووضوح وكشف لها كثيرا من الحقائق التى عرفها أو عاشها.. وقص عليها تجربته طوال أيام الحرب.

وهنا دخل الطبيب الجراح الحجرة ومن ورائه عدد من مساعديه لتغيير الضمادات.. فغادرت الغرفة للانتظار فى الصالون الملحق بها فى انتظار انتهاء الطبيب من مهمته.

وما هى إلا لحظات ورأيت أنور السادات رئيس مجلس الأمة فى ذلك الوقت يدخل الغرفة.. وقلت له وهو يصافحنى: إن الطبيب يقوم بتغيير الضمادات.. ولم يمنعه ذلك من مواصلة طريقه.. وبعد ترحيب القائد بالسادات، توجه بالرجاء للطبيب بالعودة فيما بعد لمواصلة مهمته.

وطالت مدة الزيارة إلى أكثر من ثلاثة أرباع الساعة.. بعدها طلب السادات أن أنضم لهما.

وسألنى السادات عن حكاية المنشور البعثى الذى أخبره كمال عنه، فحكيت له الحكاية بكل تفاصيلها. فقال: إن جمال حدثه عن منشور بعثى يهاجمه، أرسله له صحفى مصرى يدرس فى ألمانيا. ولم يخبرنى أنك من أرسلت إليه هذا المنشور.. ولا أدرى لماذا؟!.. فقد سبق أن حكى لى عن قصة لقائك بالملك فيصل، ووصف مواجهتك للشيخ كمال أدهم مدير المخابرات السعودية وشقيق زوجة الملك وللأمير عبدالله الفيصل أكبر أبناء الملك بالشجاعة الأدبية. وعبر عن رضائه عن أسلوب إدارتك للحوار الصحفى مع الملك فيصل. وقال: إنك صحفى فاهم شغله.

ثم عقب قائلا: إنه بالقطع لديه أسبابه.

فتساءل كمال حسن على قائلا: وهل توقعت سيادتك أن يتحدث سيادة الرئيس عن منشور وصفه بأنه كالبالون؟!

ولم يكن ممكنا الاستمرار فى الحديث عن المنشور البعثى. والرئيس عبدالناصر أكثر من ذلك.. فاتجهت بالحديث إلى ناحية أخرى.. وعدت إلى ما أخبرنى به القائد عن المعركة

التـــى خاضها ضد القوات المدرعة الإســـرائيلية فى ظروف غـــير مواتية، ومع ذلك أرغمته على الخروج من المعركة. فقال السادات: إنها معركة مشرفة.. وعندما سمعت عنها رأيت أن أسمع تفاصيلها من قائد المعركة شـــخصيا. ثم توقف وقال مخاطبا كمال حســـن على: يا كمال.. إن هذه المعركة هى عنوان للثقة بالنفس وبالقوات المســـلحة.. لقد تم اســـتدراج مصر إلى مجزرة عســـكرية، ولكن هذه المعركة وما يماثلها من مبادرات شجاعة على امتداد الجبهة أنقذت شـــرف مصر والعسكرية المصرية، كما أنها ومضات الأمل التى انبعثت فى ليلة حالكة الظلام؛ لتنير لنا الطريق إلى الغد.

وكان بذلـــك كأنـــه يفكر بصوت عال.. ولكن هذه الإشـــارات المبكـــرة كان من الصعب قراءتها وكانت مفهومة فى ضمير المتحدث. وتعمل على تشـــكيل وصياغة تفكيره. وعندما هم الســـادات بالانصراف، اســـتوقفه كمال حسن على وطلب منه أن يخطط للمعركة المقبلة أهل الخبرة من العسكريين المحترفين المتعلمين.. لا أهل الثقة أنصاف الجاهلين المتعالين.

كانت كلمات شجاعة.. استمع إليها السادات بكل كيانه وإن لم يعقب أو يرد.. ومضى فى طريقه.

❑❑❑

# الفصل الثامن

# لقاء مع السادات فى موسكو(١)

اتصل بى كل من لطفى الخولى ومحمد سيد أحمد الزميلين بـ«الأهرام» لدعوتى على قدح من الشاى بفندق سميراميس، وتحدد الموعد على ضوء ارتباطاتى وظروف عملى، والتقينا، ووجدت بصحبتهما الصحفية الفرنسية «جوزيت آليا»، التى كانت تعمل وقتذاك بجريدة «نوفيل أوبزر فاتور».. ودار الحديث حول قضايا برزت على الساحة بعد نجاح السادات فى إقصاء مجموعة الورثة. كنا فى بداية خريف ١٩٧١م، وكان السادات قد بدأ بفرض أسلوبه، وكانت الجبهة الممتدة على امتداد شاطئ القناة ملتهبة.. وتطرقنا جميعا فى أحاديثنا عن احتمالات المستقبل وشكل المعركة المقبلة، واعتبر لطفى الخولى هذه القضية مدخلا ليسألنى تقديم خدمة للصحفية الفرنسية التى وصفها بأنها نصير قوى للقضية الفلسطينية بالحصول لها على تصريح من المخابرات الحربية لزيارة الجبهة والالتقاء بعدد من القادة والضباط والجنود، فوعدته بالمحاولة.. وفى اليوم التالى، أخبرته أنها يمكنها لقاء عدد من القادة والضباط والجنود الذين يخدمون بالجبهة خلال ساعات، أما زيارة الجبهة فتتطلب عدة أيام لاستخراج التصريح المطلوب، وتحديد الأماكن والمناطق التى يمكن زيارتها، فقال إنه سيتصل بها ليعرف منها الإجابة، وبعدها سيتصل بى تليفونيا، ولم يستغرق الأمر منه وقتا طويلا، فقد تلقيت منه مكالمة أخبرنى خلالها أنها ترحب بلقاء هذه المجموعة من رجال الجبهة. ورتبت لها الأمر، ورافقتها خلال هذه اللقاءات. كانت سيدة فى الثلاثينيات من عمرها، أنيقة، جميلة، مثقفة، بارعة فى عملها، وطوال حوارها، كانت تبحث عن أبعاد الصورة، وطبيعة الموقف على الجبهة، وقدرة الرجال على تحمل ضغوط المعارك، والعبء البدنى والنفسى لمثل هذه المواجهة المستمرة. وقد وفرت لها المخابرات الحربية مترجما من اللغة العربية إلى الفرنسية، ليسهل عليها إجراء الحوار. وقد لفت نظرها أن أحد من رجال الأمن الحربى لم يحضر هذه اللقاءات، وكان الموجودان هما أنا والمترجم فقط. وعادت بعد أداء هذا العمل وهى سعيدة وراضية. وبعد عدة أيام، جاء لطفى الخولى للقائى بمكتبى،

ليسألنى ونحن نحتسى القهوة عما إذا كنت على استعداد لقبول دعوة لزيارة الاتحاد السوفييتى؟!.. فأجبته بالإيجاب.. فسألنى: مَن أريد أن أرى.. والأماكن التى أرغب فى زيارتها؟!.. فقلت له: إننى سألتقى فى موسكو بالصديق عبدالملك خليل مراسل «الأهرام» هناك، وصاحب العلاقات القوية بالمسئولين السوفييت، أما الأماكن التى أتمنى زيارتها فى مقدمتها لينجراد، وجمهوريات إسلامية.. وإذا أمكن منطقة الحدود الصينية - الروسية.. فقال: ستزور هذه المناطق قريبا.. وفعلا سافرت خلال أكتوبر ١٩٧١م، ووفرت السلطات الروسية كل ما يجعل الزيارة مثمرة ومريحة.. ولم أكن أعلم أو أتوقع أن ألتقى بالرئيس السادات هناك.. فقد دعانى السفير يحيى عبدالقادر لحضور عشاء فى منزله سيحضره الرئيس السادات والوفد المرافق وعدد محدود من المسئولين السوفييت، وسألته: هل يعلم الرئيس بهذه الدعوة؟!.. فقال إنه أرسل له الأسماء، ولم يتلق منه اعتراضا على اسم منها. وحضر الرئيس فى موعده تماما، وصافح الحاضرين، وعندما صافحنى سألنى عما إذا كنت ألتقى بـ عبدالملك خليل؟!.. فأجبته بنعم.. فطلب أن يراه ويرانى فى الاستراحة التى يقيم بها، فسألته عن أنسب الأوقات، وتم تحديد الموعد. وعندما أبلغت عبدالملك بطلب الرئيس، بدا وكأنه كان يتوقع مثل هذا الطلب، فسألته: فقال: إنه يريد أن يسمع منى تقديرى للموقف وبعض ما يجرى فى المطبخ السوفييتى، بعد أن قرأ واستمع إلى تقارير كثيرة.. منها، بل فى مقدمتها تقرير السفير الممتاز يحيى عبدالقادر الذى تمكن من شق طريقه بالعاصمة السوفيتية. وكنت قد التقيت لأول مرة بالسفير يحيى بمدينة جدة بالسعودية خلال شهرى ديسمبر ١٩٦٥م ويناير ١٩٦٦م، بعدها زرته بمقره بالعاصمة اليوغوسلافية «بلجراد» عام ١٩٦٨م، وها أنذا ألتقى به للمرة الثالثة فى موسكو، ولم أكن أعلم وقتذاك أننى سألتقى به للمرة الرابعة خلال شهرى مايو ويونيه ١٩٧٢م.. فالحياة سلسلة من الحلقات، حلقة وراء الأخرى، وكل حلقة لا تشى ولا تبوح بما وراءها.. فالحلقة الأولى فى علاقتى بالسفير يحيى عبدالقادر لم تبح بما وراءها، حتى وصلنا إلى اللحظة التى التقينا معا فى موسكو عام ١٩٧١م. وذهبت مع عبدالملك للقاء الرئيس السادات، واستقبلنا الرجل ببشاشة وود ورحب بنا، وداعب عبدالملك وسألنى: ماذا أفعل فى موسكو؟! وطلب من عبدالملك أن يحدثه عما يجرى داخل الكواليس حول الموقف من مصر، خاصة أن القادة السوفييت هم الذين طلبوا منه الحضور، وأرسلوا له رسالة بهذا المعنى فى نهاية

شهر سـبتمبر. وكانت العلاقات بعد وفاة الرئيس عبدالناصر قد شهدت منعطفات حادة.. فخلال النصف الأول من مايو ١٩٧١م تمكن السادات من إزاحة مجموعة الورثة التى كانت تنافسه على قمة السلطة، والتى كانت تعد الفريق الذى يعتمد عليه السوفييت فى مصر، كما كان السفير السوفييتى فى القاهرة قد تورط فى مؤامرة هذه المجموعة، وفى نهاية شهر مايو، وصل الرئيس السوفييتى «بودجورنى» إلى القاهرة، وطلب من الرئيس السادات توقيع معاهدة صداقة وتعاون مع الاتحاد السوفييتى، ووافق الرجل من أجل طمأنة السوفييت على مصالحهم، بعد أن اختفى رجالهم وراء القضبان. وهذه الزيارة عكست بشكل واضح شكوك موسـكو تجاه القاهرة، وتجاه السـادات بصورة لا تحتمل أى تفسير آخر. وتصور الرئيس المصرى أن السـوفييت بعد المعاهدة، سيبدون حسن نية، وسيعملون على تلبية احتياجات مصر من الأسلحة والذخيرة، ولكن شيئا لم يتغير، وبدأ السادات يتبرم من مثل هذه المعاملة وهذا التجاهل. وبعد أقل من شـهرين، قاد الرائد هاشـم العطا الشـيوعى انقلابا عسكريا فى السـودان، وتمكن من الاسـتيلاء على السلطة، ولكن دون أن يسيطر سيطرة كاملة على الأوضاع فى السـودان. وبعد وصول الفريق أول محمد صادق إلى طرابلس، ينجح فى إحباط الانقلاب الشـيوعى بعد الإيقاع بقادة الانقلاب الكبار أثناء عودتهم من لندن إلى الخرطوم. وقد أرغمت الطائرات الليبية الطائرة الإنجليزية التى تقلهم على الهبوط فى بنغازى، وبعد إلقاء القبض عليهم تم تسليمهم للرئيس السودانى جعفر نميرى الذى عاد إلى قمة السلطة، وسرعان ما تم إعدام قادة الانقلاب، وقادة الحزب الشيوعى. وخلال أيام الانقلاب، وصل «بوناماريوف» المسئول السوفييتى الكبير إلى القاهرة لإقناع مصر بمساندة الانقلاب، وعندما ذاع نبأ فشـل الانقلاب وإلقاء القبض على زعماء الخارج والداخل، ضغط من أجل الحفاظ على حياتهم، ولكنه فشـل أيضا. ونتيجة لموقف السادات الرافض للانقلاب الشيوعى فى السـودان، ومساندته لعودة الرئيس نميرى، ازدادت العلاقات المصرية - السوفيتية سوءا. ويتلقى السـادات الدعوة بعد شـهور من التجاهل له من جانب القادة السـوفييت لزيارة موسـكو، فيلبيها على أمل أن تؤدى إلى تحسـن العلاقات بصورة تخدم استعداده للحرب. ويشرح عبدالملك أسلوب عمل القيادة السوفيتية التى تميل إلى الجمود وعجزها عن المبادرة، ورغبتهـم القوية فى عدم إغضـاب الولايات المتحدة بصورة مزعجـة.. وينتقل للقول: إن المناقشات التى دارت بين القوى المسيطرة بالكرملين خاصة بعد فشل الانقلاب السودانى،

انتهت إلى التسليم بالنتيجة وبالأمر الواقع وبإدراك أن السودان والشعب السودانى لم يكن مستعدا لمثل هذه الخطوة التى سبقت زمانها، ولم يسبقها إعداد كاف. واتجه المتناقشون إلى العمل على بعث الدفء فى أوصال العلاقات مع مصر، وعلى ضوء هذه النتيجة، تمت الدعوة. وأكد عبدالملك أن السادات سيخرج من المفاوضات بنتيجة إيجابية. ثم قال: إنهم يدركون حجم خسارتهم بوفاة عبدالناصر، ويدركون أنه ليس عبدالناصر، ولن يكون.. ولكنهم أيضا كثيرا ما يقولون لأنفسهم إن السادات زعيم وطنى. ثم عقَّب قائلا: إنهم يتطلعون لوجود تيار ناصرى قوى فى مصر.. يكون أحد مكونات تيار يسارى كبير يملك قدرة الضغط على صانع السياسة والقرار. وبدا أنور السادات راضيا عما يسمع، وإن كانت شكوكه فى السوفييت تتغلب على إمكانيات الثقة بهم.. ولكنه توقف أمام تطلع السوفييت لوجود معسكر يسارى قوى، وسأل عبدالملك عن رؤيته لذلك، فتحفظ وهو يجيب قائلا: ليس هناك ما يوحى بقوة تأثير القوى اليسارية، ولكنها موجودة وتعمل بنشاط. والتفت إلى منتظرا تعليقى، فقلت إننى أود أن أحكى عن محطات لـ ٢٣ يوليو فى حياتى، أدت فى النهاية إلى تحديد موقفى. وفى ذلك أتشابه تقريبا مع جيلى، الذى استقبل ٢٣ يوليو وهو ينتقل من مرحلة الصبا إلى مرحلة الفتوة، هذا الجيل تحدد موقفه النهائى من ٢٣ يوليو وعبدالناصر عبر تجارب حياتية وشخصية وسياسية، شكلت محطات على الطريق، ومعظم هذا الجيل استقبل ٢٣ يوليو بآمال لا حد لجمالها فى النهوض بمصر، ومواصلة العمل من أجل إنجاز يقوم بنقل مصر إلى مستقبل أكثر ازدهارا وإشراقا. وعن المحطات التى مررت بها، فإن البداية كانت كالتالى:

• قررت مجموعة من الأقارب والأصدقاء السفر إلى القاهرة لمشاهدة العروض العسكرية والفنية يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٤م، ولاقت الفكرة قبولا ممن حولنا، وتضاعف العدد.. وشاهدنا العرض العسكرى فى الصباح. وتوجهنا فى المساء إلى الساحة الموجودة أمام قصر عابدين لمتابعة وسماع كلمات القادة.. وهناك سمعنا الهتافات تتردد بحياة جمال عبدالناصر فقط، رغم أن الرئيس محمد نجيب كان موجودا، ويتصدر المنصة باعتباره رئيسا، وكان يسمع الهتافات المؤيدة لناصر والرافضة له!! وكنا نتابع الصراع الضارى على القمة من خلال ما تنشره الصحف، ونتتبع أخبار المظاهرات التى تعكس مواقف الفرقاء. وكانت صدمتنا قوية عندما علمنا أن صاوى أحمد صاوى.. تقدم مظاهرات عمال النقل وهتف بسقوط الحرية

دعما للبكباشـى جمال عبد الناصر وفريقه على حسـاب فريـق اللواء محمد نجيب، وكل مـن وقف بجواره أو سـانده. ومن قوة الارتباط بالأمل فـى ٢٣ يوليو «بلعنا زلطة» الهتاف بسقوط الحرية، رغم أنها مؤشر خطير على حقيقة المواقف والتوجهات اليوليوية، المهم أننا تابعنا ونحن نقف فى الصفوف الأولى للجماهير المحتشدة بالميدان هذه الهتافات، ووجدنا أن الإنصـاف يقتضى الهتاف للرجلين معا، فاللواء محمد نجيب هو الذى قاد المجموعة، وأعطاها هذا القدر من الشـعبية والقبـول، ولا يمكن تجاهله لمجرد أن عبدالناصر يريد أن يتخلـص منه.. فوقفت وهتفت: عاش نجيب، عاش جمال.. وارتج الميدان والجموع تردد هـذا الهتاف من خلفى، وكأنها كانت تنتظـر مثل هذا الهتاف.. وواصلت الهتاف، وكل مـن فـى الميدان يرفع الصوت مرددا.. وتراجعت الهتافـات بحياة عبدالناصر. وما هى إلا دقائق حتى حاصرتنا مجموعة من الرجال الذين يرتدون ملابس مدنية، وبدأت فى توجيه السـباب لنا.. وكانت صدمتى وصدمة الناس من حولى شـديدة، وهم يتهموننا بأننا جميعا مـن العملاء، وقالوا: إننى من المجموعة المدسوسـة من عملاء الاسـتعمار.. وأنه لابد من شنقى جزاء وفاقا لما أقدمت عليه.. وقال آخرون: بل يجب ضربه بالنار. والتف أبناء العم والأقارب والأصدقاء من حولى، ثم من حول المجموعة من الرجال التى حاصرتنا، وانضمت إلينا طوابير من المواطنين بالميدان، وقالت الدائرة المحيطة من أبناء العم والأقارب لهم: إننا أشـرف منكم جميعا، وإننا سـنتولى تأديبكم، وتجمهر الناس من حولنا، وحاولوا الاعتداء على أفراد هذه المجموعة، وهنا بادرت بالهتاف بسـقوط الاسـتعمار وعملاء الاسـتعمار، ورددت الحشـود الهتاف، وأسـقط فى يـد هذه المجموعة.. وفجـأة ظهرت مجموعة من الضباط الذين بدا أنهم كانوا يتابعون الموقف عن قرب، بعد أن تبينوا أننا والناس سـنفتك بأفـراد هـذه المجموعة التى كانـت ترتدى زيا مدنيا موحدا بعد أن فشـلت فى إخافتنا، أو إصابتنـا بالرعـب، وكانت النتيجة التى يمكن أن ينتهى إليها الموقف تختلف عن تلك التى خططوا لها، فقرروا أن يتدخلوا بسـرعة، ومن فورهم قالوا لنا: إن ما جرى، خاصة ونحن موجودون أمام المنصة يمكن أن ينتهى بكارثة، وطلبوا منا أن نغادر المكان، وخشـى المواطنون وأبناء العم وباقى الصحاب من أن يكون فى الأمر محاولة لاستدراجنا بعيدا لإلقاء القبض علينا، أو الاسـتفراد بنا وضربنا، وقالـوا ذلك صراحة للضباط. ووجدت واحدا من الضبـاط يهمس فى أذنى طالبا منى الخروج أنا ومن معى بسـرعة من الميدان، والعودة من

حيث أتينا، وأقسم بشرفه أننى لو انسحبت فلن يلحق بنا أى أذى، ولكنه لا يضمن ماذا يمكن أن يحدث لو طال الموقف.. ووجدتنى أثق فى هذا الرجل وفى نصيحته، ومن فورى، بـدأت فى البحث عن طريق بين الحشـود للخروج من الميـدان، ومن خلفى رفاق الرحلة. «وبلعت الزلط».. لأننى كنت مازلت متعلقا بالأمل فى ٢٣ يوليو، بالرغم من أن المؤشر كان خطيرا وكاشـفا. وقلت للرئيس السادات: إن كل المؤشرات التى كشفت عنها التجارب لا تختلف عن ذلك، فسـأل الرجل عن المحطة التالية، وبدا وكأنه يريد أن يسـمع مثل هذه التجربة.. ربما لأن الفرصة لم تتح له لسماع مثل هذه الحكايات.

• وانتقلـت للحديث عن المحطة الثانيـة، فأوضحت أن الدائرة الانتخابية التى أنتمى إليها بمحافظة الشرقية، كانت تتقاسمها عائلات معروفة، ويفوز بالمقعد النيابى من ينتمى للحزب الحاكم، سـواء من الوفد أو من الأحرار الدستوريين أو السعديين.. وهكذا.. أى أن المقعد كان يدور وفقا للصراع السياسى بين القصر والإنجليز والأحزاب. وكانت قواعد اللعبة إلى حـد كبـير واضحة.. وفى ظل ٢٣ يوليو تم الإعلان عـن انتخابات نيابية عام ١٩٥٦م وتقدم ابن العم الدكتور رضوان مباشر.. العالم الذى أنشأ قسم الكيمياء الصناعية بكلية العلوم بجامعة القاهرة.. والحاصل على سبع درجات دكتوراة من جامعة ليون الفرنسية وجامعات أوربيـة أخرى، ومـن أوائل من توصلوا لعلاج لآثار الإشـعاع الذرى، وقد اسـتفادت منه اليابان لعلاج الضحايا عقب قنبلتى هيروشيما وناجازاكى.. لهذه الانتخابات للفوز بالمقعد النيابى. وفوجئنا بأن على صبرى تقدم للمنافسة على نفس المقعد بالرغم من أنه من مواليد بورسـعيد، وليس له أى علاقة بالدائرة، سـوى علاقة قرابة تربط بين أسـرته وأسرة على الشمسـى باشـا الوفدى الذى يملك عزبة بقرية «بهنباى» التى تبعد بمسافة ٣ كيلومترات عن قريتنا «القنايات». وحضر على صبرى، وطلب الاجتماع بمجموعة من الشباب، فذهبنا إليه فى بيت آل الشمسـى، وتحدث كثيرا عن دوره فى ٢٣ يوليو وعن أفضلية قادة يوليو على غيرهم من المرشحين، فقلت له بوضوح: إننا لن نتخلى عن ابن عمنا، وسنترك الحكم لصندوق الانتخابات.. فقال: وأنا أرضى بالصندوق كحكم.. وبعد أن غادر إلى القاهرة، كان قـد صدر قرار باعتقالى أنا ومجموعة الشـباب الذين حضـروا اللقاء، فهربنا جميعا بمجرد علمنـا بتحـرك قوات الشـرطة لتنفيذ أمر الاعتقال، ولم نعد إلا بعد ما يقرب من شـهر..

وبعد وصول على صبرى إلى القاهرة، صدر قرار باستبعاد أعداد كبيرة من المرشحين لإخلاء الدوائر لرجال يوليو، وكان من بين المبعدين الدكتور رضوان مباشـر ابن الدائرة.. وصاحب الإنجازات العلمية المبهرة.. وكان من بين المبعدين أيضا موسى صبرى رئيس تحرير جريدة «الأخبار» لإخلاء دائرة قصر النيل لمجدى حسـنين الذى أنشـأ مديرية التحرير. وكان قد بنى حملته الانتخابية على هذا الإنجاز، أما موسـى صبرى فخاطب ناخبى الدائرة قائلا: انتخبوا موسـى صبرى الذى لم ينشئ مديرية التحرير! ! وكان علينا أن «نبتلع الزلط» مرة أخرى، وأيضا من أجل الدفاع عن آمالنا فى ٢٣ يوليو.

❑❑❑

## السادات فى موسكو.. للبحث عن سلاح (٢)

قال الســادات بعد أن اســتمع إلى حكاية على صبرى وموســى صبرى وانتخابات عام ١٩٥٦م: إنه كان متعاطفا جدا مع موســى صبرى. وإنه ضحك كثيرا عندما علم أن شــعاره هو: انتخبوا موسى صبرى الذى لم ينشئ مديرية التحرير..

وذكر أن عبدالناصر تســاءل: وهل كانت هذه المديرية سُــبَّة فــى جبين الثورة إلى هذه الدرجة؟!!

ثم قال: هل قصد موســى صبرى اتهام مجدى حســنين بالسرقة. وبالفشل معا؟!.. لقد كان غاضبــا. ومــا أغضبه أكثر أن يغنــى عبدالحليم حافظ له أغنية تقول «موســى صبرى انتخبوه.. موســى صبرى بنحبوه».. وأن يصحبه فى جولاته الانتخابية. ثم سألنى: وماذا لديــك بعد ذلــك؟!.. فقلت له واقعة أكثر طرافة كادت تقضى على مســتقبلى بالصحافة. فاعتدل فى جلسته.. وأخذ فى إشعال البايب وهو يستحثنى لكى أحكى هذه الواقعة..

فقلت: استدعانى مصطفى أمين.. وعندما ذهبت إليه.. طلب منى أن أسافر إلى كفر الشيخ لإعداد تحقيق عن مشاكل الناس هناك.. بعد أن كثرت الشكاوى من المحافظ حمدى عبيد.

نزلت من مكتبه وتوجهت إلى الأرشــيف لقراءة ما هو موجود من معلومات عن المحافظ والمحافظة.. وصباح اليوم التالى توجهت إلى كفر الشيخ بسيارة من الأخبار.. وكان تصورى أن أصل قبل صلاة الظهر.. وفى أحد المساجد الكبيرة الموجودة بوسط المدينة أصلى الظهر. وأجلس مع المصلين لأسمع منهم.. بعدها أذهب للقاء المحافظ.

وفعلا.. أديت الصلاة بالمسجد.. بعدها تحلق المصلون من حولى بعد أن عرفوا من السائق أننى صحفى بالأخبار.. وبدأوا فى الحديث عن مشاكلهم وضيقهم من الأوضاع وعدم رضاهم عن أداء المســئولين.. كان الكل يتســابق لبث شــكواه.. ولم أسمع واحدا يعترض على هذا السيل من الشكاوى.. ولم أسمع صوتا مؤيدا للمحافظ.

وبعد أكثر من ســاعة غادرت المسجد وأنا أحمل أوراقى.. وأحاول ترتيبها وفقا للقضايا التى طرحوها.. واتجهت إلى المحافظة للقاء المحافظ حمدى عبيد.

ولم يطل انتظارى بمكتب السكرتير.. وجاء ترحيب المحافظ فاترا، فأدركت أن هناك من أخبره عما جرى بالمسجد.. وفى البداية رأيت من الأفضل أن أخبره بالهدف من زيارة المحافظة ولقائه.. فعبر عن اهتمامه بسماع رأى الناس.. وإن طلب تأجيل ذلك؛ لكى يكون موضوع حديثنا ونحن نتناول طعام الغداء.

وأمضيت وقتا معه بالمكتب.. ثم ذهبنا إلى القصر الذى يقيم فيه، وعندما جلسنا معا فى الصالون وبحضور عدد من معاونيه، بدأ فى توجيه السباب لى ولمصطفى أمين وللأخبار ولكل الصحفيين «ولاد .....» ولم يتوقف عن توجيه إهاناته للجميع.. وبكل ما فى قاموس السباب من كلمات حادة ومدببة ومؤذية.. ثم قال: أتريدون مهاجمة حمدى عبيد «يا بتوع الأمريكان»؟!.. هل تسعون لضرب ٢٣ يوليو ورجالها الذين أنقذوا مصر من الملك والاستعمار والرجعية والإقطاع؟!.. ألا تعرفون من هو حمدى عبيد وتاريخه الوطنى؟!

**وهدأ قليلا..**

وطوال هذا الوقت لم يتدخل أحد من الحاضرين لإقناعه بالتوقف..

ثم واصل قائلا: إننى أستطيع قتلك الآن ولن يحاسبنى أحد، ولن يسأل عنك أحد. وسألنى ألا تعرف أننى قادر على تقطيعك قطعا صغيرة، ودفن كل قطعة فى مكان؟!.. ثم لماذا نقوم بتقطيعك.. سنلقيك جثة فى البحر.. وظل يدور حول هذه النقطة طويلا.. ولم يكن أمامى سوى الصمت.. وكنت أنظر حولى وأتساءل: ما هو الخطأ الذى وقعت فيه لكى أتعرض للتهديد بالقتل والسب والتجريح؟!

نعم هو ضابط يوليوى. وهو الذى احتفظ بالمطبعة فى منزله.. وتولى طبع المنشورات الثورية.. وخاطر بحياته ومستقبله، ولكن كل ذلك لا يعطيه الحق فى سب الصحفيين أو فى تهديدى بالقتل.

واستمرت هذه المحنة بكل سوئها وضغوطها لما يقرب من ساعتين.. يهدد.. ويسب.. ويهدأ.. ثم يعاود من جديد.. ثم قال فى النهاية. «خلى مصطفى أمين ينفعك. أنت منذ الآن مفصول من الصحافة. ولن تعمل صحفيا مرة أخرى.. ولن تدخل الأخبار.. ولن تتمكن من العمل بأى صحيفة أخرى. وواصل قائلا: لن أقتلك وسأكتفى بفصلك من العمل».

**ثم طردنى من منزله..**

ولا أدرى كم بكيت، ولكننى لم أتوقف عن البكاء طويلا.. بكاء داخلى فى صمت.. ولعنت كل من له علاقة بـ٢٣ يوليو.. واليوم الذى سقطت فيه مصر فى أيدى هذه المجموعة.

وبعد أيام.. تساءلت: ولماذا ألعن الجميع؟ إن الذى أخطأ فى حقى هو حمدى عبيد.. فلأكتف بلعنه. «فلا تزر وازرة وزر أخرى».

وبعد أن وصلت إلى القاهرة.. ذهبت إلى الأخبار.. وسألت عن مصطفى أمين.. فعرفت أنه بمكتبه.. فصعدت.. وحكيت له ما واجهته طوال اليوم، وبدا الألم على وجهه وهو يستمع إلى تطاول المحافظ وتهديده لى بالقتل. وقال مصطفى أمين: إن المحن هى التى تصنع الصحفى.. وأن التجارب تتولى صقله. وأكد أن هذه المحنة سوف تمر.. وأنها لن تكون نهاية المحن وعلىّ أن أتعلم منها وأن أتوقع مواجهتها بين الحين والآخر.

وحاول التخفيف من مرارة التجربة. ثم قال لى: أتعرف إن سامى شرف تحدث معه تليفونيا.. ونقل له شكوى حمدى عبيد من مصطفى أمين وجريدة الأخبار وعبده مباشر.. ثم طلب منى أن آخذ إجازة إلى أن يتمكن من إعادتى للانتظام فى العمل مرة أخرى.. وقال: إنه سيتحدث فى الأمر مع جمال عبدالناصر.. وسيوضح له حقيقة الأمر.. وتوقع أن حمدى عبيد قد روى له الحكاية من وجهة نظره.

وخرجت من مكتب مصطفى أمين حزينا مهموما.. فتهديد حمدى عبيد لم يكن مجرد كلمات، بل تهديد حقيقى.. وها أنذا أفقد عملى.. ولا أدرى ما سوف يأتى به الغد.. إننى أثق فى وعد مصطفى أمين ولكن القرار ليس بيده.

وعدت إلى منزلى وأنا أحمل فى أعماقى بركانا من الغضب والألم والحيرة. وكان التساؤل الرئيسى: وماذا سوف أفعل؟!.. ولم يكن أمامى سوى الانتظار لمعرفة نتيجة جهود مصطفى أمين.

وأمضيت أيامى محاولا القراءة وممارسة رياضة التنس لكى أنفث عن البخار المتراكم داخلى أثناء ضرب كرة التنس بقوة ومحاولة تفريغ طاقة الغضب.

خلال هذه الفترة، زارنى صديقى المذيع الشرقاوى محمد الشناوى. فلاحظ أننى أحمل

هموم الدنيا كلها فوق رأسى. فسأل: فأجبته.. وبعد أن استمع إلى تفاصيل ما جرى.. أمسك بالتليفون وبدأ يتحدث مع الملحن محمد الموجى ويقص عليه ما فعله حمدى عبيد معى. وفى نهاية المكالمة طلب الموجى أن نذهب إليه فى شقته بشارع الشواربى مساء يوم الخميس المقبل.

وبعد انتهاء المكالمة وتحديد الموعد قال الشناوى مطمئنا: إننى سأعود إلى عملى إما مساء يوم الخميس نفسه.. أو صباح يوم الجمعة.. وأخبرنى أنه صديق للموجى.. والموجى صديق لحمدى عبيد.. وأنه يزوره دائما كلما حضر إلى القاهرة.

وقال إن عبيد أبلغ الموجى أنه سيزوره يوم الخميس.. لذلك حدد لنا موعدا لنلتقى جميعا.. وهو واثق أن المحافظ لن يرفض له رجاء للعلاقة القوية التى تربطهما.

وظل الشناوى يؤكد لى نهاية هذه المحنة، ولم يتوقف عن الإشادة بالفنان محمد الموجى فنيا وإنسانيا واجتماعيا. ونبتت كل زهور الأمل بالقلب.. وتحول العالم من حولى إلى حدائق بلا أسوار.. وبلابل لا تتوقف عن الغناء.

ولم أشك لحظة فى وعد الموجى.. وقلت إنها إرادة الله التى أرسلت محمد الشناوى لزيارتى.. وهى التى دفعت حمدى عبيد لزيارة الموجى مساء هذا الخميس القريب.. وتمنيت لو أن الأيام تتدافع بسرعة لتصل إلى مساء يوم الخميس.

وجاء الموعد. وتوجهت مع الشناوى إلى شقة الموجى بشارع الشواربى.. الأضواء خافتة فى مناطق ومبهرة فى مناطق أخرى.. وكان الرجل يجلس على «شلتة» فوق سجادة، والضيوف يجلسون مثله.. قليلة هى المقاعد بهذا الصالون.

وجلسنا فى مواجهة الرجل.. وطلب أن يسمع منى الحكاية.. فرويتها له. فتساءل بدهشة: حمدى يهدد ويسب ويفصل ويتوعد!!

فقلت له: ستسمع منه المعزوفة نفسها عندما يرانى فى ضيافتك.

فقال: إنه إنسان وديع كطفل ورجل تلقائى؛ يتحدث على سجيته وبانطلاقة. ولم أجرب عليه شرا، ولم ألاحظ عنفا.. فقلت للموجى: إنك تستقبله عندما يقرر أن يقضى أوقاتا طيبة.. أى أنه فى حالة حضور للاستماع إليك ولضيوفك من الفنانين والمثقفين.. والاستمتاع بضيافتك وكرمك وفنك. وتأخر الرجل فى الوصول. وبدأت أشعر بالقلق، وأخشى أن تكون هناك ظروف حالت دون حضوره. وبين الحين والحين يؤكد لى الموجى أنه سيحضر، وأن علىَّ ألا أشعر بالقلق.

وفعلا حضر قبل منتصف الليل.. وفى البداية لم يلاحظ وجودى بسبب الضوء الخافت. وانتحى به الموجى.. وتحدث معه عنى وعن مستقبلى.. وأن المسئول هو مصطفى أمين.. إذا ما كان هناك خطأ فى التفكير فى إجراء تحقيق صحفى عن كفر الشيخ. أما عبده كمحرر صغير فهو لم يكن أكثر من منفذ.. ولم يكن يستطيع أن يرفض طلبا من رئيسه. واستمر الحديث فترة ليست قصيرة.. حاول خلالها الموجى أن يقنعه أننى لا أستحق أن أخسر مستقبلى.. وأفقد مهنتى لمجرد أننى نفذت أمرا لرئيس التحرير.. وأنه لا يمكن كأب أن يقبل بمثل هذا المصير الفظيع.

وطلب حمدى عبيد فرصة للتفكير فى الأمر.. فأخبره أننى موجود منتظرا منه العفو وقرارا بالعودة للعمل؛ باعتبارك الأكبر القادر على التسامح.

فطلب أن يرانى.. فانتقلت إلى جواره.. فسألنى عما إذا كنت أعلم من هو؟!.. فقلت له: طبعا.. وقد قرأت كثيرا عنك قبل أن أذهب إلى كفر الشيخ.. وأعرف دورك وجسارتك.

ثم سألنى عما إذا كنت قد سجلت شكاوى الناس؟!.. فأكدت له أننى لم أحمل معى جهاز تسجيل.. وسألنى مرة أخرى: لماذا وافقت على ما طلبه مصطفى أمين؟!.. فسألته: وهل تظن سيادتك أننى أستطيع الرفض؟!

فانتقل للحديث عن مؤهلاتى وعمرى.. وكم سنة قضيتها فى العمل كصحفى.. وعما إذا كنت متزوجا أم لا؟!.. فقلت له: لا.. فقال: أنصحك ألا تتزوج.. وضحك وضحك معنا كل من الموجى والشناوى. ثم قال: إننى لا أستطيع أن أرفض طلبا للموجى. وقال: سأتصل بسامى شرف الآن لكى تعود لعملك.

وطلبه فعلا. وطلب منه أن يبلغ جمال عبدالناصر أنه عفا عن الصحفى عبده مباشر.. وأنه يستأذنه فى عودته للعمل.

وبعد حوالى نصف ساعة تلقى مكالمة من سامى شرف لكى يبلغه أنه اتصل فعلا بمصطفى أمين وأبلغه بعودتى للعمل.

فتوجهت بالشكر له.. وشكرت الموجى جدا.. واستأذنت فى الانصراف.. وغادرنا أنا والصديق الشناوى.

واقترح الشناوى أن نتوجه لمسجد الإمام الحسين لأداء صلاة الفجر والسجود شكرا لله على هذه النهاية السعيدة لمحنة غير سعيدة.. وطوال هذا الوقت كان الرئيس السادات

يسـمع باهتمام وتركيـز. وفى النهاية علق قائلا: إن حمـدى كان غلطان جدا.. ولولا أنه «دلوعـة» جمال عبدالناصر ما فكر مجـرد التفكير فى التصرف على هذا النحو.. وقال: لم أكن أعرف أن للموجى كل هذا التأثير على حمدى عبيد.

وواصلت قائلا: لقد ظللت مع جيلى «نبتلع الزلط» ونتجاهل كل المؤشرات وكل سلبيات النظام؛ تمسـكا بالأمل فى الوفاء بوعود التقدم والازدهار حتى جاءت نكبة يونيه ١٩٦٧م وقتها تأكدنا أننا لن نسـتطيع أن نتعلق بالأمـل أكثر من ذلك، فالهزيمة لم تكن لجيش، بل لنظام!!

فى تلك الأيام بدأت المواقف الجديدة تتبلور..

واسـتنادا إلى ما مررنا به من محطات حتى انتهينا إلى يونيه ١٩٦٧م أسـتطيع أن أقول لسـيادتك إن أى تيار أو قوى ناصرية سيكون محدود التأثير والفاعلية.. ولا يمكن المراهنة عليه.

فقـال الرئيـس: إن هذا ما أفكر فيه.. ولكن الآخرين يفكرون فى الأمر بطريقة مختلفة. يريدون تيارا حليفا يتعاون معهم.

واسـتدار لعبدالملك خليل قائلا: بالقطع مررت بمحطات مختلفة عن تلك التى مر بها عبده.. فهل سترويها يوما أو تكتبها فى كتاب؟!!

فقال: إنه لا يجيد كتابة الكتب ولكنه سيرويها.

وقال السـادات: إنه يتطلع لموقف سوفييتى إيجابى؛ وهو ما حضر إلى موسكو إلا لأنه توقع تغييرا لصالح مصر والقوات المسـلحة، وهم يعلمون حقيقة احتياجاتنا، ويدركون أننا نسـتعد للحرب.. ولن تكون هناك حرب بدون سـلاح.. فالمعركة المقبلة هى رهان مصرى على المستقبل.

❑❑❑

# الفصل التاسع

## نميرى يثأر من الشيوعيين

بعد القضاء على الانقلاب العسكرى الشيوعى الذى قاده الرائد هاشم العطا يوم ١٩ يوليو ١٩٧١م، واستعادة الرئيس جعفر نميرى كامل سلطاته، وجه الشكر لكل من الرئيس المصرى أنور السادات والزعيم الليبى معمر القذافى وباقى أعضاء مجلس قيادة الثورة الليبية، لأنهم هم الذين تحركوا بقوة لمساندته ودعمه أثناء المحنة التى اقتلعته من القصر الرئاسى ليعيش فى المعتقل إلى أن تم تخليصه بعد فشل الانقلاب، وكانوا وراء عودته إلى منصبه واستعادته كامل سلطاته.

وكان نميرى شديد الامتنان للسادات، وفى الوقت نفسه لم ينس السادات لنميرى أنه حضر إلى القاهرة يوم ١٤ مايو ١٩٧١م أثناء ذروة الصراع على السلطة للتعبير عن وقوفه بجوار السادات.

كما كان الرئيس السودانى يشعر بالشكر العميق للعقيد الليبى، ولكنه كان يعلم فى الوقت نفسه أن الرجل الذى أدار الأزمة من طرابلس بكفاءة وذكاء مستفيدا من خبراته العسكرية التى امتدت لسنوات طويلة إلى أن تمكن من القضاء على الانقلاب هو الفريق أول محمد صادق وزير الحربية المصرى.

وطوال أيام الانقلاب التى كانت قصيرة جدا، كان العقيد فاروق بشير الملحق الحربى المصرى على اتصال به، ويحيطه بالموقف أولا بأول سواء أثناء وجوده بالقاهرة يوم ١٩ يوليو أو بالعاصمة الليبية طرابلس اعتبارا من يوم ٢٠ يوليو، إلى أن تم إخراج نميرى من المعتقل بعد نجاح القوة العسكرية المؤيدة له فى التحرك بعد إرغام طائرة الخطوط الجوية البريطانية التى كانت تقل قادة الانقلاب وعلى رأسهم بابكر النور وفاروق حمد الله من لندن إلى الخرطوم على الهبوط فى بنغازى، واعتقلتهم السلطات الليبية.

أدت هذه الخطوة والإعلان عنها إلى إصابة هاشم العطا ورفاقه فى الخرطوم بالصدمة، وإلى تشجيع أنصار نميرى وأعداء الانقلاب الشيوعى إلى التحرك مدنيا وعسكريا.

وعــرف نمــيرى أن هذه الخطة وضعهــا الفريق أول صادق وراهــن على نجاحها، وقد نجحــت... وبعــد نجاحها عاد إلى القاهرة حتى لا يعرف أحــد بوجوده فى ليبيا، ولكى تظل العملية ليبية تماما.

وقد أبدى نميرى رغبته فى استقبال الفريق صادق بالخرطوم لتوجيه الشكر له شخصيا خلال اتصال تليفونى مع الرئيس الســادات.. وتحدث الســادات مع وزير الحربية، فقال له: لقد شــكرنى تليفونيا، وأرســل رسالة عن طريق المكتب الحربى المصرى فى الخرطوم، وأعتقد أن فى ذلك الكفاية.. فقال السادات، ربما يريد أن يسمع منك مباشرة، واقترح عليه السادات أن يسافر تلبية لدعوة النميرى، ورأى الفريق أول صادق أن يغادر مصر سرا وفى طائرة عسكرية وألا تطول الزيارة لأكثر من ساعات يلتقى خلالها بنميرى.

وهناك فى الخرطوم كان فى انتظاره وزير الدفاع السودانى، ومن باب جانبى، غادرت الســيارات المطار إلى القصر الرئاسى، حيث كان الرئيس فى انتظار الضيف، وبود حقيقى استقبل الفريق أول صادق، وقال له: لقد كنت واثقا طوال أيام المحنة من فشل الانقلاب، ولكننى لم أكن أعرف كيف.. وعشــت فى انتظار انقشــاع هذه الغمة... ثم استطرد قائلا: وحتى الآن لا أعرف الســبب فى أنهم اكتفوا باعتقالى.. ولم يحاولوا اغتيالى.. ولقد ســألت بعضهم قبل أن تصدر الأحكام بإعدامهم، لماذا؟!.. فقالوا: كنا نخطط لمحاكمتك على كل الأخطاء التى ارتكبتها فى حق السودان والسودانيين، ليعرف السودانيون أنك خنت أمانة المسئولية، ولم تعمل إلا لمصلحتك لا لمصلحة السودان، ولم أقتنع بهذه الإجابة.

بعدهــا توجه بالســؤال للفريق أول صادق عما إذا كان ما قالــوه صحيحا، فأجابه بأن المحاكمة وما يصاحبها من تشــهير وفضح يمكن أن تكون ســببا وجيها وعلى النقيض فقد يكون الاغتيال عاملا فى إثارة الرأى العام ضد الانقلابيين، خاصة أن الشــعب الســودانى مسالم يرفض الدم.. فاستراح النميرى لهذه الإجابة، ودعا صادق والوفد الصغير الذى كان يرافقه إلى رحلة نيلية، وأثناء إبحار السفينة الأنيقة فى مناطق التقاء كل من النيل الأبيض بالنيــل الأزرق صحب الرئيس ضيفه إلى المقدمة ليســمع منه تفاصيــل عملية اعتقال بابكر النور وفاروق حمد الله.

وبعد أكثر من ســاعة دعا نميرى الجميع لتناول الغذاء، وعلى المائدة اقترح على الفريق صادق البقاء للغد، ولم يعترض الرجل.

وإلى قصر الضيافة القريب من قصر الرئاسة، توجه الوفد المصرى لاستراحة قصيرة.. وفوجئ الجميع بقدوم نميرى ووزير الدفاع مع بداية المساء، واتجه الجميع إلى شرفة مطلة على النيل تحيط بها الحدائق.. وتحدث الرئيس السودانى عن عشق السودانيين «للونسة» أى لقاء الأصحاب فى منزل أحدهم فى نهاية اليوم للسمر، والجمع بين الحديث فى الأدب والسياسة والأحوال العامة والخاصة، وكثيرا ما تمتد إلى ما بعد منتصف الليل.

وتطلع وزير الحربية المصرى لمعرفة الثغرة فى إجراءات التأمين التى سمحت للانقلابيين بتحقيق مثل هذا الاختراق الذى أتاح لهم السيطرة على الأوضاع فى الخرطوم.. وأمسك وزير الدفاع بطرف الخيط، وأسهب فى شرح الظروف والأسباب.

ولأننى قرأت عن الاتهامات المتبادلة بين هاشم العطا وقادة الحزب الشيوعى القوى بالسودان وعن اتهامه لهم بأنهم السبب فى فشل الانقلاب، فقد وعدوه بتحريك الشارع لمؤازرة الانقلاب، ولم يتمكنوا من الوفاء به، فى حين خرجت المظاهرات المعادية للانقلاب بكثافة بعد اعتقال قادة الانقلاب فى ليبيا، فقد طلبت من نميرى إضاءة هذه النقطة، فقال: إن قادة الحزب الشيوعى كانوا فى انتظار وصول بابكر النور وفاروق حمدالله، لكى تنطلق المظاهرات للترحيب بهم، وتظل فى الشارع بعد ذلك تأييدا للانقلاب، ولم يكن يعتريهم الشك فى أنهم قد أمسكوا بزمام الأمور، خاصة أن الاتحاد السوفيتى أعلن عن مساعدته ووقوفه بقوة معهم، كما أن السادات أرسل وفدا ضم أحمد حمروش وأحمد فؤاد، بما يعنى قبول مصر بما جرى، بالرغم من أنها لم تعلن موقفها بشكل واضح من الانقلاب.

وفى الوقت نفسه بادر العراق تحت حكم البعث إلى تأييد الانقلاب والاعتراف بالسلطة القائمة والإعلان عن توفير كل الدعم والمساعدات المطلوبة.

هذه الثقة كانت وراء تأجيل عمليات التظاهر تأييدا للانقلاب، وكان التوضيح كاشفا لحقيقة موقف قادة الحزب الشيوعى، وفى الوقت نفسه يعطى الحق لهاشم العطا فى لوم الحزب وتحميله مسئولية الفشل.

وتطرق الحديث إلى المظاهرات المعارضة، فاعترف نميرى بأن تنظيمه السياسى «الاتحاد الاشتراكى» لم يتحرك بفاعلية وكان خاملا، وأن المبادرة كانت لقوى سياسية من خارج هذا التنظيم.

وسألته: وماذا عن العاملين بالقطاع العام والحكومة؟!.. فقال إنهم من المكونات الرئيسية

للاتحاد الاشتراكى.. وكان الاستفسار التالى حول قبول المواطن السودانى السياسى بالفطرة، عاشق التعددية والتنوع السياسى، فقال: صدقت.. لقد تأكدنا أن التنظيم السياسى الواحد لا يجد القبول من المواطنين السودانيين.

وعدت لأسأله: ولماذا اقتدى بمصر فى هذا المجال؟! ولماذا لجأ للتأميم، والتحول إلى الاعتماد على القطاع العام فى دولة مازالت تحبو فى مجال الصناعة؟!.. فقال: إن الرئيس عبدالناصر وراء تبنى الحزب الواحد الذى يضم كل القوى السياسية والتحول إلى طريق القطاع العام، ولم ينتظر الرجل السؤال.. وقال: لقد دار الحوار حول الحفاظ على النظام السياسى، ومخاطر الثورات المضادة.. وكان من أهم ما قاله: إن شعوبنا لا تثور إلا عندما تشبع، وضرب مثلا بثورة ١٩١٩م، حيث تحرك الطلبة، ثم تحرك الفلاحون والمزارعون بعد أن باعوا إنتاجهم من القطن بأسعار قياسية نتيجة لظروف الحرب العالمية الأولى، أما الموظفون فلم ينضموا للثورة إلا بعد أن حصلوا على مرتباتهم، وكانت نصيحته أن يضع النظام دخول الناس تحت سيطرته، وأن يوفر لهم مطالبهم واحتياجاتهم إلى مستوى دون الشبع حتى لا يثوروا.

وقال: إن الذى قدم له هذه المذكرة، أو هذه الدراسة هو الدكتور إسماعيل صبرى عبدالله، وقد اقتنع بها وعمل على أساسها.

وسألنى نميرى: هل كنت تعلم شيئا عن هذه المذكرة؟!.. أو أنها كانت وراء التحول إلى سياسة القطاع العام والسير على طريق التخطيط المركزى واقتصاد الدولة؟!.. فقلت له: لا.. ولكنى أعلم أن الدكتور راشد البراوى وهو شيوعى مثله مثل إسماعيل صبرى عبدالله كان وراء قرارات الإصلاح الزراعى التى صدرت ابتداء من شهر سبتمبر ١٩٥٢م، وأن المذكرة التى أعدها حول هذا الشأن حازت على رضاء عبدالناصر وعدد كبير من ضباط يوليو.

وسألت نميرى عما إذا كان عبدالناصر قد أعطاه نسخة أو صورة من مذكرة إسماعيل صبرى عبدالله؟!.. فأجاب بالإيجاب.. فاستأذنت أن أقرأها.. فقال إنه سيرسلها لى غدا.

وجاء الغد وعدنا إلى القاهرة دون أن تتاح لى فرصة الحصول على صورة منها، أو حتى قراءتها.

وشارك الحاضرون فى الحوار حول دور القوى الشيوعية فى كل من مصر والسودان، وكان الانقلاب الشيوعى يلقى بظلاله على المتحاورين، وجاء الحديث حول دور كل من

الدكتور راشد البراوى والدكتور إسماعيل صبرى عبدالله فى التأثير على عبدالناصر ودفعه لتبنى سياسات يسارية أو اشتراكية اقتصادية واجتماعية، وسياسية وثقافية أسهمت فى دفع مصر للاقتراب من الاتحاد السوفيتى، ودول الكتلة الشيوعية، ليضيف أبعادا أخرى للحوار والمتحاورين.. ونال الاتحاد السوفيتى نصيبا وافرا من لعنات نميرى، فقبل مغادرة صادق للقاهرة كان القادة السوفييت قد أرسلوا بونا ماريوف للضغط على القاهرة للحفاظ على حياة قيادات الحزب الشيوعى، وعلى رأسهم رئيسه عبدالخالق محجوب والشفيع أحمد، بالإضافة إلى قادة الانقلاب بابكر النور وفاروق حمدالله وهاشم العطا من الإعدام.

ودافع نميرى عن إعدام هؤلاء القادة استنادا إلى تورطهم فى الانقلاب العسكرى وخطورتهم على الأمن القومى السودانى، وأكد أنه سيطارد كل قيادات الحزب التى لم تقع بعد فى قبضة السلطة.

وهذا الإصرار كان يعنى أن النميرى قرر إدارة ظهره للاتحاد السوفييتى وكل الدول الشيوعية، وأن مطاردة شاملة إما قد بدأت أو ستبدأ لأعضاء الحزب الشيوعى، وأن هذه المطاردة سترغمهم على النزول تحت الأرض لتجنب قبضة السلطة.

ولم يكن واضحا خلال هذه الفترة ما إذا كان نميرى سيلجأ للاعتماد على القوى السياسية التقليدية ممثلة فى حزبى الأمة والاتحاد أم سيتجه إلى القوى السياسية الإسلامية.

ومنذ البداية كان حليفا للشيوعيين الذين كانوا القوة التى اعتمد عليها لتنفيذ انقلابه العسكرى، ومن تلك اللحظة لم تتوقف التجاذبات والصراعات، ولكنه ظل دائما حريصا على الاستمرار على قمة السلطة.

ورأى نميرى أن الحوار قد طال حول هذه القضية، فقرر تغيير مسار الحديث بعد أن لاحظ أن الفريق أول صادق ظل مستمعا، ولم يحاول التدخل فى المناقشات، فابتعد عن قضايا السودان والانقلاب العسكرى الشيوعى، وسعى لاستيضاح بعض الحقائق حول صراع السلطة الذى شهدتها مصر خلال شهر مايو الماضى، وبجرعة كبيرة من الصراحة قال لوزير الحربية المصرى: إننى مازلت أتشكك فى أن الفريق أول محمد فوزى دبر أو كان يدبر لانقلاب عسكرى على السادات، وواصل قائلا: كما أننا هنا فى الخرطوم مازلنا فى حيرة حول خروج السادات منتصرا فى هذه المواجهة غير المتكافئة مع مجموعة على صبرى، التى ضمت وزراء الحربية والداخلية والإعلام والمخابرات العامة ومجلس الأمة واتحاد العمال والتنظيم السياسى الوحيد!!!

وأخذ الخيط وزير الدفاع السـوداني الذى تسـاءل بدوره عن موقف السـفير السوفييتى فى مصر طوال هذه الأزمة؟!!.. وقال صادق: ربما كانت الثقة العالية بالنفس وراء فشـل هذه المجموعة، بجانب الاسـتهانة بالسـادات، ثم توقف برهة قبل أن يواصل قائلا: إن الشرعية تمنح الحاكم أكثر من ٥٠٪ من قوته ونفوذه، وبالتالى فإن ذلك يحرم الآخرين من هذه النسـبة، ثم يدور الصراع بين الشـرعية وعدم الشرعية، وبمجرد أن تكون القضية بين هذين القطبين خاصة فى دولة مركزية قوية كمصر، فإن فرص فوز الشرعية تكون أكبر.

ودار نقـاش حـول هذه القضية وبـدا واضحا أن الرجل تجنـب أن يتحدث عن دوره الرئيسـى فى إحباط الانقلاب العسـكرى الذى خطط له فوزى، ولم يحاول الإجابة على أسئلة نميرى أو وزير الدفاع.

وكانت قضية الشـرعية فى مصر الدولة المركزية بقـوة طوال تاريخها، تطرح لأول مرة بمثل هذه الصورة أمام نميرى، وظل طوال ما تبقى من وقت «الونسـة» التى تخللها تحلق الجميع حول مائدة عشـاء.. يسأل ويستوضح، وبدا وكأنه يحاول أن يعرف موقع السودان من هذه القضية، وموقف الشرعية فى العاصمة الخرطوم، لا على ضوء ما جرى خلال أيام انقلاب هاشم العطا، بل على ضوء التاريخ السودانى.

❑❑❑

# الفصل العاشر

## السادات يقرر فصلى من العمل

تواصلت مظاهرات الطلبة طوال النصف الأول من عام ١٩٧٢م، وبذلت قوات الشـرطة الكثير من الجهود للحد من هذه المظاهرات، إلا أن الطلبة كانت لديهم الخطط المناسـبة.. فـإذا ما تم تفريق المظاهرات فى منطقة أو شـارع مـا، فإنهم يعودون للتجمع فى مناطق أو شـوارع أخرى، وبما كان يصيب قوات الأمن بالحيرة. وبلغ مثل هذا النشـاط ذروته خلال شـهر مايـو ١٩٧٢م، وعندما حل شـهر يونيه أخـذت القاهرة تعيش مرحلـة المظاهرات الكبـيرة، بالإضافة إلى احتلال ميدان التحرير. وبالنسـبة للمظاهـرة التى أحاطت بمبنى جريدة الأهرام واحتشـدت بشـارع الجـلاء بحجم تجاوز العشـرة آلاف متظاهر.. أعطت المظاهرة مؤشـرا مهما، ألا وهو الربط بين النظام السياسـى وصحافته، وكما يجرى الهجوم والهتاف ضد النظام والرئيس والوزارة وحكومة هارفارد، بدأت الصحف تتعرض للهجوم، وتـرددت هتافات معادية لرؤسـاء تحريـر الصحف القومية وفى مقدمتهم هيكل وموسـى صبرى. وتابع الموجودون بالأهرام المظاهرة والهتافات، وتبينوا وجود أكثر من قائد للهتاف وبما يوحى أو يشير إلى أن هناك أكثر من مجموعة، وبدا واضحا أن هناك مخططا وراء هذا الحضور المكثف للمتظاهرين أمام الأهرام، ودعم هذا التفكير اسـتمرار المتظاهرين فى الموقع وعدم انصرافهم، ولو أن الأمر مظاهرة تحمل رسـالة إدانة للجريدة ورئيس تحريرها، ومن يعمل بها سـواء لمسـاندتهم لرئيس الجمهورية أو باعتبارهم جزءا مـن نظام يرفضونه، أو لموقف رئيس التحرير الذى دعم السـادات بقوة خلال أزمة الصراع على السـلطة، لاكتفوا بالهتـاف لفترة ثـم انصرفوا لمواصلة التظاهـر للضغط على الحاكـم والحكومة.. لكن عدم الانصراف والاستمرار، دفع مجموعة من الأهرام إلى الاستنتاج بأن هناك من يدبر شيئا غير معروف الملامح. وقدرت أن وجود هذه الآلاف يشكل خطرا لا على الأهرام فقط، بل وعلى منطقة عشـش الترجمان وبولاق، وأن هذا الخطر يمكن أن يصبح واقعا بشـعا إذا ما أقدم متظاهر واحد على إلقاء طوبة أو حجر باتجاه الواجهة الزجاجية للمبنى للتعبير عن غضبه

وسخطه. كانت صورة ما جرى فى يناير ١٩٥٢م، وما أسفرت عنه من حرائق شملت عدة مبان ومنشآت بالقاهرة ماثلة أمام عينى، وكان يسيرا قراءة سيناريو الأحداث فيما لو بدأت عملية التخريب التى سرعان ما ستتجاوز الدائرة المحدودة للأهرام والمناطق القريبة منه. وإذا ما اشتعلت الحرائق فى هذه المناطق الهشة فاحتمالات امتداد النيران إلى مناطق أخرى لا يمكن تجاهلها، والاحتمال الأسوأ تمثل فى أن حرائق ١٩٧٢م قد تتجاوز ما ترتب من آثار ونتائج على حريق ١٩٥٢م، كان الموقف خطيرا، بل خطيرا جدا، وخشيت من عواقب العجز عن مواجهة الموقف. وتساءلت: أين أنت يا أستاذ هيكل؟!.. فلو كنت موجودا ما تصاعد الأمر إلى هذه الدرجة، ولتمكنت من حسمه بما هو معروف عنك من حكمة وخبرة، ولكن هل يعنى عدم وجودك أن نقف عاجزين؟! ها هو الموقف يتطور، والاحتمالات تحمل الكثير من الأخطار، وتفتح الباب لأحداث لا تحمل أى خير لمصر أو المصريين. واستعنت بالله، وقررت أن أواجه المتظاهرين على أمل السيطرة على المظاهرة فى المرحلة الأولى، وإذا ما تمكنت من ذلك سأعمل على قيادتها بعيدا عن الأهرام فى المرحلة التالية. وقدرت أننى بالضرورة سأخاطب عواطف المتظاهرين ومشاعرهم لا عقولهم، وبالتالى سأضطر إلى قول ما يساير غضبهم، وأيا كان الثمن الذى يمكن أن أدفعه فيما بعد عما سأقوله، فإن المواجهة والعمل على درء الخطر قضية تستحق مثل هذا الثمن. وكنت على يقين أن النظام سيتوقف أمام ما سأقوله، لا أمام الهدف مما أقول، ومع ذلك لم أتراجع. واتجهت فى طريقى إلى خارج المبنى، فأمسك بذراعى الأستاذ مكرم محمد أحمد، وحذرنى بعد أن قرأ ما عزمت عليه، فقلت له: اطمئن، ولا تخش شيئا، فالمواجهة خير من العجز. ووقفت أمام مدخل الأهرام، وخاطبت المتظاهرين، فسألتنى مجموعات منهم: مَن أنت؟!.. فأعلنت للجميع اسمى وعملى كرئيس للقسم العسكرى «وقتذاك».. وأوضحت لهم أننى أتحدث باسم الأهرام، ووجدت من حملنى على الأعناق، وكان من بينهم الزميل رمضان السائق بالأهرام، وامتدت الأيدى لتناولنى ميكروفونا، وخاطبت الجميع بعد أن صمتوا ليسمعوا صوتا من الأهرام بعد أن طال انتظارهم قائلا: أيها الطلبة الشرفاء، يا أنقى عناصر هذه الأمة وأملها وضميرها اليقظ، أقول لكم: إن من يأمرون بإطلاق النيران على صدوركم إنما يلفون حبلا حول عنق النظام، اهتفوا معى: «يسقط الطاغية».. «يسقط الجلاد»، واستجاب المتظاهرون، وصفقوا طويلا، ورددوا الهتاف من خلفى. وأعدت الهتاف مرات ومرات، بعدها شعرت

أن اللحظـة التى أقود فيها المظاهرة بعيدا عـن الأهرام قد حانت، فطلبت ممن يحملوننى على أكتافهم أن يتحركوا باتجاه تقاطع الجلاء مع شارع ٢٦ يوليو، ثم من التقاطع إلى شارع رمسيس، وواصلت الهتاف وهم يرددون. وعندما استقرت المظاهرة فى شارع رمسيس تركتها وأنـا أحمد الله على هذه النتيجة، وعدت إلى الأهـرام، وهناك تذكرت أننى لم أذهب إلى وزارة الحربيـة لأداء عملى كباحث عن الأخبار والمعلومات، فذهبت إلى مبنى الجراج لكى أعثر على سـيارة تنقلنى إلى الوزارة، وما إن وصلت إلى مكتب الوزير حتى أخبرنى العقيد جمال حسـن مديـر مكتبه أن الوزير سـأل عنى، وطلب أن يرانى فـور وصولى، ودخلت مكتبه، وقبل أن يمد يده ليصافحنى سـألنى عما إذا كنت قد شـتمت الرئيس فعلا خلال المظاهرة؟!.. وبالرغم من دهشتى من سرعة معرفته لما جرى، ورغبتى فى معرفة كيف؟!.. فقد قصصت عليه الأحداث بترتيب حدوثها مع توضيح للأسباب والأهداف، وقلت له كل مـا جـرى والهتاف الذى رددته، ولماذا كان على أن أفعل ذلك، للسـيطرة على المظاهرة، وحمايـة الأهرام والمنطقة، بـل والقاهرة من الأخطار التى أحدقـت بها. وأوضحت له أن المظاهـرة قد دخلت فى مرحلة تغلبت علـى المتظاهرين عقلية القطيع، وفى هذه الحالة لا يمكـن التنبؤ بمسـار الأحداث، ويكفى إقدام متظاهر واحد علـى إلقاء طوبة أو حجر على الواجهة الزجاجية لمبنى الأهرام، ومشـاهدة الزجاج وهو يتكسـر حتى يندفع الجميع وهم فـى حالـة من الهياج والغضب، ويخـرج الانفجار المكتوم فى داخلهم على شـكل أعمال تخريبية منها التكسـير والحـرق والنهب، وفى ظل هذا المناخ يجد «فئران الشـوارع» من الصبية المنحرفين والجانحين والعاطلين والجائعين والحاقدين والصائعين، الظروف ملائمة للنهب والسلب والتخريب بكل قواهم وطاقتهم، فهم بطبيعتهم وظروفهم أهل لاستغلال هذا المنـاخ، ويمكن اعتبارهـم أخطر العناصر خلال المظاهرات. وواصلـت قائلا: إن الإنصاف وسعة الأفق وحسن الفهم للأوضاع وما يمكن أن تتطور إليه، وما حققته من نجاح فى حماية الأهـرام، بل والقاهرة كلها من حريق مماثل أو أخطر من حريق يناير عام ١٩٥٢م، يفرض علـى صاحب القرار تكريمى ومنحى وسـاما رفيعا بجانب الإشـادة العلنية بما قمت به، فضحـك الفريـق أول صادق وهو يقول: إن صاحب القرار أمر بإلقاء القبض عليك، واتهمك بأنـك مجنـون، ثم إن الكل يعلم أنك قريب منى، وهناك الآن من يتسـاءل عن دورى فى تحريضك على سـب الرئيس. ولا شـك أن الرجل شعر بالرضا بعد أن سمع روايتى وعرف

التفاصيل، وكان سعيدا بكل ما قمت به، ولكنه تساءل بصوت عال: كيف يمكن شرح الأمر وتبريره للرئيس السادات؟!.. ثم سألنى عن الأستاذ هيكل؟!.. فقلت له: لو كان موجودا لسارت الأمور فى مسار آخر، فعلق قائلا: من المهم أن نحاول أنا وهو، توضيح حقيقة الموقف للرئيس السادات، وشرح الأسباب التى كانت وراء ما قمت به.. وقال: ويجب أن تعلم أنه غاضب جدا، من وصفك له بالطاغية والجلاد. ثم أخبرنى إن ممدوح سالم وزير الداخلية قد أصدر أوامره بالبحث عنى وإلقاء القبض على. وطلب الاتصال بوزير الداخلية، حيث شرح له الموقف، وأبلغه أنه سيتحدث مع الرئيس السادات لتهدئة ثورته، ويبدو أن ممدوح سالم قال كلمات تحمل ضرورة تنفيذ أمر إلقاء القبض على، لأن الفريق أول صادق رد عليه قائلا: إن عبده مباشر يرتدى الزى العسكرى باعتباره ضابطا مكلفا بالقوات المسلحة، وليس من سلطات وزارة الداخلية إلقاء القبض على العسكريين، كما أنه يحمل رتبة عسكرية فخرية منحها له الرئيس السادات منذ عدة أشهر تكريما له على دوره فى عمليات الكوماندوز خلال معارك الاستنزاف، وقال له: إننى أتطلع لأن تأمر رجالك بالابتعاد عن عبده مباشر، للاعتبارات التى قلتها لسيادتك. وفى المساء التقيت بالأستاذ هيكل فى مكتبه، وكان متفهما بصورة مدهشة لكل ما حدث، بالرغم من أن البعض حاول تشويه صورتى، وروى الأحداث بشكل مغاير تماما، وعبر لى عن سعادته وشكره لما قمت به، وطلب أن يسمع منى كيف فكرت وأقدمت على مواجهة المتظاهرين؟!.. فرويت له الأحداث، كيف قرأتها.. وكيف واجهتها؟!.. وجاء تعقيبه مماثلا لتعقيب الفريق أول صادق، فقد قال كيف يمكن أن نبرر الأمر للرئيس السادات؟! فأخبرته أن الفريق أول صادق، أجرى مكالمة لوزير الداخلية، فقال: إنه سمع من صادق حكاية هذه المكالمة. وفعلا قام الأستاذ هيكل بتوضيح الأمر للسادات، وكذلك فعل الفريق أول صادق، وكلاهما أبلغنى أن الصفحة قد طويت، وأن الرئيس قد اقتنع وانتهى الأمر. وقلت لنفسى: لو أنه اقتنع لاتصل بى على الأقل ليسمع منى، أو ليوجه لى الشكر، وبما أنه لم يفعل، فإن الأمر لم ينته بعد بالنسبة له. ومرت أيام عام ١٩٧٢م بكل أحداثها، وفى أكتوبر أقال السادات وزير الحربية محمد صادق، وبعد أسابيع صدر قرار بفصلى من العمل ضمن قائمة الكُتَّاب والصحفيين الذين تم فصلهم، وكنت الوحيد بين المفصولين الذى لا ينتمى إلى أى جماعة يسارية أو حتى معارضة للسادات. وكانت المفارقة قائمة بين دورى فى مظاهرتى ١٩٦٨م

و١٩٧٢م فـى المظاهرة الأولى تمكنت ومجموعة رائعة من الأصدقاء من سـرقة المظاهرة التى دبرها النظام لامتصاص سخط المواطنين على الأحكام الهزيلة على بعض قادة يونيه ١٩٦٧م، وحولناهـا إلى مظاهرة معادية للنظـام، وهتفنا ضد النظام الديكتاتورى وسـطوته، وطالبنا بالحريـة وبحكومة حرة.. وكنـا صادقين فى الموقف الذى اتخذنـاه، ومع ذلك كان قرار الرئيـس عبدالناصر بعـدم اعتقالى، قرار رجل دولة، فقد قال لمدير المخابرات الحربية: إن وجـودى كمقاتل بالمجموعة ٣٩ قتـال، أفضل لمصر من وجودى بالمعتقـل. وفى المظاهرة الثانيـة، قدت المظاهـرة بعد أن خاطبت المتظاهرين وهتفت ضد السـادات، لا لأننى ضد الرجل أو ضد سياساته أو مواقفه، بل لأننى قدرت أن هناك أخطارا يمكن أن يتعرض لها مبنـى الأهرام والموجودون به، وخطر من أن يتكـرر حريق يناير ١٩٥٢م، أى أن الضرورة فرضت على هذا الموقف، أى أننى فى النهاية من وجهة نظرى وفى ظل الظروف الموضوعية كنت أؤدى مهمة وطنية، ومع ذلك تقرر فصلى من عملى ونقلى إلى هيئة الاستعلامات. ولم أعد إلى عملى إلا يوم ٢٨ سـبتمبر ١٩٧٣م، ففى الكلمة التى ألقاها الرئيس السـادات فى مناسبة رحيل عبدالناصر، أعلن عودة المفصولين من الكُـتَّاب والصحفيين إلى أعمالهم، كان الرجل يسـعى من أجل وحدة وطنية، وهو مقدم على إطلاق هجوم عسـكرى واسع النطاق لتحرير مساحة من الأرض المحتلة فى سيناء. قبل هذه اللحظة، أى قبل الإعلان عن عودة المفصولين بساعات، اتصل السادات بالأستاذ هيكل وأبلغه بأن الجميع سيعودون فيما عدا عبده مباشـر، وكان منطقيا أن يسـأله: لماذا؟!.. فقال الرئيس: إن أحمد إسماعيل وزير الحربية، القائد العام، طلب ذلك، وأبلغه أنه لا يأمن على القوات المسلحة فيما لو عدت، وأن أمامـه ملفـا بالأخطاء التـى وقعت فيها، خاصة دورى فى انقلابات عسـكرية ومنها المحاولة الانقلابية الأخيرة التى قادها اللواء على عبدالخبير بعد إقالة الفريق أول صادق. وفعـلا جرى التفكير فى الانقلاب على السـادات، وتمت عدة اجتماعات نوقشـت فيها الفكرة، ولكن رأى اللواء عبدالخبير التراجع عن المحاولة تماما لأسباب شرحها للمجموعة التى شـاركته فـى التفكير والتخطيط، وقد رأى المشـاركون ومعظمهم من الأصدقاء تجنب الاتصال بى بأى شـكل من الأشـكال، لأن مثل هذا الاتصال سيورط الفريق أول صادق فى الانقلاب لعلمهم جميعا أننى ألتقى بالرجل بانتظام، وسواء أخبرونى أو أشركونى فى الأمر أو لا فإن شـبهة الاتهام بالاشتراك سـتثار ويرتبط بها شبهة ضلوع الوزير السابق فى هذه المحاولة، وهم جميعا يريدون من قلوبهم تجنيبه مثل هذا الموقف.

وطـوال فـترة التخطيط التى لم تطل، تجنبوا الاقتراب منى أو من الوزير السـابق. فرد هيكل على الرئيس السـادات، طالبا الحضور إليه ومناقشـته فـى الأمر، فرحب الرجل، وخلال اللقاء، قال السادات: لقد أردت أن أحيطك علما بالموقف من عبده مباشر حتى لا تفاجأ بالأمر، خاصة أنه الوحيد الذى لن يعود إلى عمله.. فشـكره هيكل، وقال للرئيس: إن الأمر بهذه الصورة سيكون مثار تساؤل عام، لماذا تم استثناء هذا الصحفى من العودة إلى الأهرام؟! وسيجرى تفسير الأمر على صور مختلفة، وستتناثر الشائعات، والحل من وجهة نظرى، أن يجرى الإعلان عن تقديم عبده مباشر للمحاكمة بالتهم الموجودة فى الأوراق التى تحدث عنها أحمد إسماعيل، فى الوقت نفسه الإعلان عن عودة المفصولين. ورد السادات بأنه يقبل بهذا الاقتراح، واتصل بالفريق أول أحمد إسماعيل، وطلب منه تقديم عبده مباشر للمحاكمة، وأن يجرى تسليم الملف للقضاء العسكرى لتوجيه الاتهام، ورد أحمد إسماعيل قائلا: إن الأوراق التى تتحدث عنها ليسـت وثائق يمكن أن يسـتند إليها القضاء. فتساءل السادات: يعنى يا أحمد عايز الراجل ميرجعش شغله دون سند أو اتهام حقيقى؟!.. وقال بحسـم عبده حيرجع شـغله مع كل المفصولين. ثم اسـتدار لهيكل قائلا: يا محمد سأعلن عن عودة كل المفصولين فى الكلمة التى سألقيها، ولن أستثنى عبده مباشر، فشكره الأستاذ هيـكل. المهم أن الأسـتاذ هيكل لم يخبرنى بما جرى إلا بعـد نهاية الحرب، ولكنه كان حريصـا دائما على أن يطلب منى عدم الاحتكاك بأحمد إسماعيل. وكانت علاقتى بأحمد إسماعيل طيبة إلى أن قرر الرئيس عبدالناصر إحالته إلى التقاعد فى يوم الهجوم الإسرائيلى على الزعفرانة فى سبتمبر عام ١٩٦٩م، حيث تولى المنصب بعد استشهاد الفريق عبدالمنعم ريـاض يـوم ٩ مارس ١٩٦٩م. وبعد قرار الرئيس، كتب الأسـتاذ هيـكل بالصفحة الأولى بالأهرام أن عبدالناصر يشعر بمدى الخسارة على رحيل عبدالمنعم رياض على ضوء أحداث الزعفرانة، وأنه قرر تعيين قيادات عسكرية شابة ومواكبة للعصر، بدلا من جيل القيادات التى تقدمت فى السـن، ولم تتمكن من مواكبة ما هو جديد. ولأن هيكل كتب ذلك بصفته المحرر العسـكرى للأهرام، فقد تصور أحمد إسماعيل أننى الذى كتبت ذلك. وعندما نقل لى صديق مشترك غضب الرجل مما نشره الأهرام، اتصلت به تليفونيا، وأوضحت له أننى لم أكتـب ذلك، ولكن الأسـتاذ هيكل هو الذى كتبـه، رد بغضب: إن هيكل ليس المحرر العسـكرى للأهرام، وأنه يكتب دائما تحت عنوان بصراحة، وهو مقتنع أننى الذى كتبت

لأننى المحرر العسكرى للأهرام، وأن ما كتبته يشوه صورته أمام الجميع، كما أنه ظلم وافتراء على الحقيقة. وأكدت له خلال المكالمة، أننى لم أكتب، وليس لدى أى سبب لأكتب عنه بهذه الصورة، وأن علاقتى به كانت دائما طيبة، كما أننى لم ألتق بالرئيس عبدالناصر طوال هذه الفترة، وهذا أمر يمكنه التأكد منه، ولم أحادثه تليفونيا، وبالتالى فإن من كتب التقى بعبدالناصر، أو حدثه تليفونيا، وسمع منه هذا الرأى.. ليس ذلك فقط، بل يبدو واضحا أن الرئيس هو الذى طلب النشر، وبهذه الصياغة. فقال بألم: ليتنى أتمكن من تصديقك.

❑❑❑

# الفصل الحادى عشر

## حوار فى جزيرة الفرسان

كثـيرا ما كان الرئيس السـادات يطلب الالتقاء بالقـادة والضباط هنا أو هناك بجانب حرصــه على حضور معظم حفلات تخريج دفعات جديدة من الكليات العسـكرية، خاصة بعد عاصفة مايو ١٩٧١م، وكانت له أسـبابه، ولكنها لم تكن مطروحة بشـكل علنى، ولم يكن هناك من هو على اسـتعداد لسؤاله عنها. وكان واضحا أنه يريد أن يكون على اتصال دائم بالقوات المسلحة وهو يخطو على طريق الاستعداد الجدى للحرب، ومن خلال كلماته كان يسـعى لتحقيق مجموعة من الأهداف، وإرسـال رسائل لهذه الجهة، أو تلك.. وربما أراد أن يضع قدمه داخل القوات المسـلحة، وأن يؤكـد حضوره بجانب القائد العام، وأن تتاح له فرصة الحوار مع مجموعة مختلفة من القادة بشكل مباشر، ليسمع منهم وليجعلهم أكثر قربا منه سـواء بالحوار أو بالاسـتجابة لمطالبهم. وخلال هذه الزيارات فى معظمها، كنت الصحفى الوحيد الذى يتابع، لا بصفتى الصحفية، بل باعتبارى المستشـار الصحفى والسياسـى لوزيـر الحربية. وكان الرئيس يرتجل كلماته، فهـو يعرف ما يريد أن يقوله، والأهداف التى يسـعى لتحقيقها.. ولم يكن أمام الفريق أول صادق سـواى لكى يطلب منه كتابة الكلمة التى ألقاها الرئيس بجانب تقرير للنشر الصحفى عن الزيارة. وفى المرة الأولى التى طلب فيها منى ذلك فى أعقاب لقاء بالجيش الثانى الميدانى، أخبرته إننى لم أكتب كل ما قال الرئيس، بل سـجلت مجموعة من النقاط، فطلب أن أجلس مع اللواء حسـن الجريـدلى، أمين عام الوزارة وكل من العميدين جمال حسـن مديـر مكتبه ومحمود عادل المسئول عن العمليات لاستكمال كتابة الكلمة.. وقد بذلنا جهدا لكى نتذكر، لأننا كنا على يقين أن الوزير سـيقرأ الكلمة وكل ما نكتبه للرئيس الذى يريد لرسـائله أن تصل ولأهدافه أن تتحقـق. وفعلا قرأ الوزير الكلمة للرئيس، فوافق على نشـرها.. وفى اليوم التالى انتقل الرئيس لزيارة الجيش الثالث، وتكرر الأمر نفسه، ولكننا حرصنا على تسجيل كل ما يقال خلال اللقاء، واسـتمر الأمر على هذا المنوال. وبعد زيارة للقوات الموجودة بمنطقتى بلبيس

وأنشـاص، عدنا جميعـا إلى القاهرة.. وعندما انتهيت من كتابـة التقرير الخاص بالزيارة والكلمـة، توجهـت إلى مكتب الوزيـر، فأبلغونى أنه ينتظرنى بمجلس الـوزراء.. وهناك وجدت موظفا من المراسم فى انتظارى على المدخل، قادنى إلى حجرة بالدور الأول.. وبعد لحظات حضر الوزير وقرأ ما كتبت، ثم اتصل بالرئيس السادات، وقرأ له التقرير والكلمة، فسأله عما إذا كان هو الذى يكتب ذلك، فأخبره أننى الذى أتحمل هذه المسئولية، فطلب منه إبلاغى شكره، وفى الوقت نفسه طلب أن أعد له الكلمات التى سيلقيها خلال زياراته المقبلة، وأنه سيبلغ الوزير بالنقاط المطلوب التركيز عليها. وكلفنى صادق وهو يشعر بالرضا أن ألبى طلب السـادات، وأكتب له كلماته، ثم قال: اقرأ كل ما قاله السـادات من قبل، وعـد لقراءة خطب الرئيس عبدالناصر، وأخبرنى أنه سـيأمر بتزويدى بكل كلمات رئيس الوزراء الإسرائيلى ووزير الدفاع ورئيس الأركان لأتابع مواقفهم وسياساتهم. وبدأت مرحلة جديـدة، كنت أعرف أو أتلقى خـبر وموعد الزيارة والقضايا المطلوب التركيز أو الإشـارة إليها، وبعد أن أقوم بقراءة ما صدر عن إسرائيل أو عن دول المنطقة فيما يتعلق بمصر، أبدأ فـى الكتابـة. وخلال هـذه المرحلة، تصاعد التوتـر مع الاتحاد السـوفييتى وزادت حدة الخلافـات فى وجهات النظر وتباعدت المواقف، وبدأ وزير الحربية فى التحدث علنا عن المماطلة فى تزويد مصر باحتياجاتها العسـكرية وعدم الوفاء بالعقود التى تم توقيعها، كما أزاح السـتار عن الضغوط السـوفيتية للحصـول على مزيد من القواعـد الحربية والبحرية والجوية فى مصر خلال الزيارات التى يقوم بها داخل القوات المسلحة. وقد تجاوبت هذه القوات مع موقف الوزير، وأكدت تقارير الرأى العام زيادة حدة الكراهية للسوفييت، وقد شكل كل ذلك ضغوطا على الرئيس السادات، ولم يكن أمامه سوى التجاوب مع اتجاهات القوات المسلحة. وساعدنى ذلك كثيرا وأنا أؤدى هذه المهمة. وكان المتبع أن أكتب مسودة الخطـاب، وأعرضها على الفريق أول صادق ليبـدى ملاحظاته عليها، وعلى ضوئها أعيد الكتابـة، ثم تجرى بعد ذلك كتابته بخط اليـد على يد خطاط، وخلال مصاحبته للرئيس سـواء فى الطائرة أو السيارة أثناء التوجه إلى الموقع، يعرض عليه الخطاب.. واستمر الأمر على هذه الوتيرة دون أن يعلم أحد من خارج دائرة مكتب الوزير شيئا عن هذا الدور أو هذه المهمة. وخلال زيارة للجيش الثانى بالإسماعيلية، طلب الرئيس أن أذهب إليه فى استراحة جزيرة الفرسـان، وهناك أملانى عدة نقاط طلب منى التركيز عليها وأنا أكتب الكلمة التى

ســيلقيها غدا بالجيش الثالث بالســويس، ووعدته بإنجاز ما طلب قبل أن يحل المســاء، فقال: يكفى أن أقرأه فى الطائرة العمودية «الهليوكوبتر» صباح الغد. كانت كل النقاط تتعلق باحتقان العلاقة المصرية، السوفيتية، فقد زار موسكو يومى ١، ٢ فبراير عام ١٩٧٢م، وعاد وهو يحمل كثيرا من الوعود، وعاش تحت وطأة التصور أن الأمور ستختلف فى أعقاب هذه الزيارة، التى أكد خلالها للزعماء الثلاثة بريجنيف وكاسـيجين وبودجورنى أن صبر مصر أوشــك علــى النفاد، وأوضح لهم مــا تتطلبه الأوضاع الحالية فى المنطقة وشــرح لهم آخر تطورات الصراع المصرى الإسرائيلى، والظروف التى تمر بها الجبهة ومشاعر الغضب التى تجتاح القوات المسلحة، وقد جاء رد الزعماء مطمئنا، وأعربوا له عن اقتناعهم بكل ما قال، ثم قالوا بثقة إنهم سيبدأون اعتبارا من الغد فى إصدار التعليمات للوفاء بالصفقات التى لم يتم تنفيذها بعد، والبدء بتنفيذ الصفقات الجديدة. توقع السادات أن يبدأ وصول شحنات الأســلحة فورا.. ولكن الشحنات التى بدأت تصل لم تتضمن شيئا من الأسلحة المطلوبة أو المتفق عليها. كان الســوفييت يتلاعبون ويـنــاورون. وبدا لى بصورة واضحة أن الرئيس وهو يملى على هذه النقاط، أنه فى حالة غضب شديد، وإن حاول السيطرة عليه.. وتأكدت من اســتنتاجاتى، عندمــا طالبنى أن تكــون الكلمات والصياغة قويــة وواضحة وحاسمة، مع تجنــب العنف والحدة. وكان الطريق ممهدا لأســأله: ما الــذى يدفع قوة عظمى كالاتحاد السوفييتى للمماطلة؟!.. ثم أليس لهذه القوة مصالح فى المنطقة وفى مصر لتحافظ عليها؟! قال: بالقطع لهم مصالح.. ولكنى أتوقع أنهم يشـعرون بالاستياء لإبعاد رجالهم من مواقع الســلطة فى مايو ١٩٧١م.. ومن موقف مصر من الانقلاب الشيوعى فى السودان، وفى كلا الموقفين كنت على اتصال بالقادة الســوفييت وأوضحت لهم ما سوف أفعله وأسباب ذلك، فعلت ذلك قبل التخلص من مجموعة على صبرى ومحمد فوزى، بل وعقدت معهم معاهدة لإزالة شكوكهم ولضمان مصالحهم. وعدت لأسأل: ألم تكن مصر تعلم وهى تخطو فى اتجاه الســوفييت، أنها اختارت اللعب مع قوة عظمى لها أهداف ومصالح مع المعســكر الغربى، بل وعلى اتســاع الكرة الأرضية.. فى حين أنها دولة تحاول جاهدة الخروج من معســكر التخلف، وأن ما تملكه من أوراق ليس بالكثير؟! فالتفت الرئيس، التفاتة مَن لم يتوقع مثل هذا السؤال.. ثم قال: لقد كان عبدالناصر يدرك هذه الحقيقة بشكل ما فى البداية، ولكنه أدركها بشكل كامل خلال السنوات الأخيرة، أو فلنقل خلال العام الأخير من حياته، وكان

ذلـك وراء إعلانه قبـول مبادرة روجرز وزيـر الخارجية الأمريكـى الخاصة بوقف حرب الاسـتنزاف بشكل أساسـى أثناء وجوده مع القادة السوفييت فى موسكو فى منتصف عام ١٩٧٠م. فعقبت قائلا: لقد جاء الإدراك متأخرا، وبعد أن ثبتوا أقدامهم لا فى مصر فقط، بل فى المنطقة وفى القارة الأفريقية وأصبح لهم أسطول بالبحر المتوسط وقواعد برية وبحرية وجوية فـى منطقـة لم يكن لهم وجـود بها قبل بـدء علاقتهم بمصر عـام ١٩٥٥م. قال السادات: لم يعد من المجدى البكاء على ما فات، ولكن من الضرورى إجراء عمليات تقييم مسـتمرة للعلاقات مع السـوفييت قبل اتخاذ أى قرارات. كانت الجملة تحمل كثيرا من المؤشرات والإشارات والدلالات، وكانت تعنى أن الرجل يمر بهذه المرحلة وأنه على وشك اتخاذ قرارات مهمة فى هذا الصدد، ولكننى لم أشأ مواصلة الحوار حولها، وعدت لأسأل عن موقف عبدالناصر من السـوفييت، وعما إذا كان يفكر بشكل جدى فى إنهاء العلاقات معهم بعد إعلان قبول مبادرة روجرز؟! وقال السادات: لا أعتقد أنه قد حسم اختياره بهذه الصورة، وقد ناقشـت الرئيس جمال حول هذه النقطة، فقال: إنه كان يشـعر باليأس من موقف الزعماء السوفييت، وواصل قائلا: فى تصورى أنه قبل المبادرة كوسيلة للضغط عليهم من أجل تغيير موقفهم. وهنا قال الرئيس السادات: لقد رحل الرئيس جمال عبدالناصر بعد حوالى شـهرين من قبوله للمبـادرة الأمريكية، وترك من خلفه كارثـة اقتصادية، وأخرى سياسـية.. ولكن الأولى هى الأسـوأ.. فلقد نقلت مصر بغباء شديد الأسلوب السوفييتى فى إدارة اقتصـاد الدولـة، ولم يكن ذلك ملائما لأنها كانت تفتقـر للموارد المالية والإمكانيات والكوادر البشـرية، ولم يكن هناك من هو قادر على التوقف والمراجعة. وقلت للرئيس: فى بداية الثورة كانت بريطانيا مدينة لمصر بأربعمائة مليون جنيه استرلينى.. ومثل هذا المبلغ كان كافيا لبدء مشروعات تنمية اقتصادية تساعد مصر على التحول إلى كيان قوى اقتصاديا.. فالتقط السـادات الخيط، وقال إن مصر كانت عفية وقوية فى ذلك الوقت، وكان ممكنا أن تصبـح أفضل، ثـم علينا أن نتذكر أن عمليات التمصير عـام ١٩٥٦م والتأميم عام ١٩٦١م أضافت أكثر من ألف مليون جنيه، ولو سارت مصر على الطريق الصحيح لتحولت إلى قوة اقتصاديـة كبيرة، ولتحققت انطلاقة هائلة فى كل المجالات، ولكن التطبيق الاشـتراكى والاختيارات الخاطئة وانتشـار الفسـاد والخوف، أصاب مصر بالشلل، وأقعدها تماما. ولا يمكـن لمصر الخروج من هذا المأزق إلا بانتصار عسـكرى يوفر لهـا القدرة على الانتقال إلى

اختيـــارات جديـــدة. ووصل الحوار إلى نقطة النهاية، فها هو الرجل يرســم خريطة الأيام المقبلة، ويكشف عن منهج تفكير، واضح المعالم ركيزته انتصار عسكرى يقود إلى تغيير فى المســارات التى قيدت حركة مصر فى الماضى. ومن خلال الحوار مع كل من موسى صبرى وأنيس منصور، عرفت أنهما يخططان لحوار عميق وشــامل مع الســادات حول ٢٣ يوليو ١٩٥٢م، وكل منهما صديق أثير للرجل، وقد حصلا على وعد بالبدء فى التســجيل عندما تسمح الظروف..، والتزم السادات بوعده بعد انتصار أكتوبر ١٩٧٣م. وقبل أن أستأذن فى الانصراف، تطلعت للحصول على وعد مماثل، وقال الرجل إنه سيخصنى ببعض ذكرياته، ولكن الوقت حاليا مازال مبكرا. وخرجت من الاستراحة وأنا أدرك أن الصورة قد أصبحت أوضــح فيما يتعلق بعلاقات الســادات بالاتحاد الســوفييتى وأننى أســتطيع كتابة الكلمة المطلوبة بشــكل أفضل. وفى الاســتراحة التى كنا نقيم بها بالإسماعيلية عكفت على كتابة الخطــاب، واضعا فى اعتبارى الالتزام بكل ما قاله الرئيس، وبعد أن انتهيت من كتابته، قرأته، ورأيت أننى يجب أن أكتبه مرة أخرى. وذهبت إلى الفريق أول صادق، فلاحظ أن الكلمــة تتضمن هجوما قويا على الســوفييت، فأوضحت أنى التزمــت بما طلبه الرئيس، فوضع تحت بعض الجمل والفقرات خطوطا، وقال: إنه سيذهب الآن إلى الرئيس بصحبة اللواء ســعد مأمون قائد الجيش الثانى، وســيعرض عليه الخطــاب، فربما يعيد النظر فى الأمر. وعندما عاد، ســألنى: ماذا فعلت وقلــت للرئيس: لقد تحدث عنك كثيرا، فقلت: لقد طرحت عليه عددا من الأسئلة لأتبين ماذا يريد أن يقول فى خطابه غدا، بعد أن أملانى النقــاط التى يجب التركيز عليها.. فقال، لقد أبدى إعجابه بالخطاب، وقال إنك التزمت بــكل ما قاله، ونفذت تعليماته بدقــة. وبهذا الخطاب الذى ألقاه الرئيس أثناء لقائه بقادة وضبــاط الجيــش الثالث الميدانى بالســويس، عبر عن غضبه واســتيائه مــن موقف القادة الســوفييت، وكانت الرسالة واضحة، وحملت إنذارا مبكرا بالقرار الذى اتخذ خلال شهر يوليو ١٩٧٢م بتحرير مصر من الاستعمار السوفييتى، ولكن مثل هذه الرسائل لا تؤدى فى معظــم الأحــوال إلى تغيير جــذرى فى مواقف الــدول العظمى. كان للســوفييت أطماعهم ومصالحهم وعلاقاتهم وتوازناتهم، ولم يكونوا بالمرونة التى تسمح بإجراء تغيير فى مواقفهم. كانت هناك اتصالات واسعة النطاق مع الولايات المتحدة للتوصل إلى أرضية جديدة مشتركة تعمل على تهدئة المخاوف والشــكوك فى العاصمتين موسكو وواشنطن. وفى مايو ١٩٧٢م،

اســتقبلت موسكو الرئيس الأمريكى نيكســون، ودارت مفاوضات بين الطرفين، انتهت إلى تفاهم مشــترك، وكانت قضية الصراع العســكرى والسياســى فى الشــرق الأوسط، والنزاع المصــرى الإســرائيلى من القضايا الموضوعة على مائدة المفاوضــات، وقد انتهى الطرفان إلى فرض الاسترخاء العسكرى على المنطقة، وبصورة أخرى استمرار حالة اللاسلم واللاحرب، بين مصر وإســرائيل. لم يكن الســادات يعلم شــيئا عن هذه الاتصالات فقــد فرض القادة الســوفييت كعادتهم قيودا صارمة للحفاظ على ســرية هذه الاتصالات، وبالتالى لم يكن فى مقدوره توقع اتفاق موسكو وواشنطن على تجميد الموقف فيما يتعلق بالصراع العربى المصرى الإسرائيلى. وقد دارت العجلة فيما بعد وفق ما أراد السادات، وتحول الغضب من المماطلة الســوفيتية إلى قرار بطرد الخبراء والمستشــارين الســوفييت يوم ٨ يوليو وتم تنفيذه يوم ١٦ يوليو ١٩٧٢م.

❑❑❑

# الفصل الثانى عشر
## رحلة الإسكندرية مع فايتسمان (١)

بعد أيام من تحمله لمسئولياته كرئيس لمصر خلفا للرئيس جمال عبدالناصر.. قرر السادات الاجتماع بالمجلس الأعلى للقوات المسلحة يوم ١٩ أكتوبر ١٩٧٠م.. وكان الهدف من الاجتماع إحاطة الرئيس علما بحقائق الأوضاع والموقف العسكرى، وطرح القضايا التى تبحث عن حلول، وكل ما يتعلق بالخطط التى وضعتها القيادة العامة لرفع الكفاءة القتالية للقوات المسلحة ككل، وللقادة بصفة خاصة، وموقف التسليح والصفقات التى تم عقدها مع السوفييت وما تم تنفيذه منها. وتحدث الفريق أول محمد فوزى وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة باستفاضة، ثم تحدث عدد كبير من القادة، وبدا واضحا أنهم مهتمون بطرح الأسئلة أكثر من اهتمامهم بالحديث عن الظروف التى تمر بها القوات المسلحة.. واستمع السادات باهتمام إلى أن بدأ فى مخاطبة المجتمعين، وفى البداية شرح الموقف كما يراه، وأبدى رأيه فيما سمعه من الوزير والقادة، ثم قال وهو يضغط على الحروف، وينتقى الكلمات، إنه يطلب منهم الاستعداد للحرب، وتحرير ولو عدة سنتيمترات شرق القناة وفقا للإمكانيات المتاحة لهم، وواصل قائلا: بعد ذلك يأتى دور السياسة. هذه الكلمات كشفت بصورة واضحة ومبكرة استراتيجية الرئيس السادات فيما يتعلق بالحرب والسلام، ولكن ما قاله الرجل لم يحظ بما يستحقه من عناية. لقد كانت الكلمات دستورا لعمل رئيس الجمهورية، ولكنها لم تكن كذلك بالنسبة لوزير الحربية ولعدد كبير من أهل القمة.. فالأغلبية لم تأخذ ما قاله مأخذ الجد، بل لم يكن الفريق أول فوزى على استعداد للتعامل مع السادات بصفته رئيس الجمهورية القائد الأعلى للقوات المسلحة، لقد كان هو وفريقه وعلى رأسهم على صبرى وسامى شرف وشعراوى جمعة يتعاملون معه على أنه رئيس مؤقت سرعان ما سيرغمونه على ترك منصبه ليكون من نصيبهم. وعلى ضوء الاستهانة بالسادات والاقتناع العميق بأنهم الأحق والأجدر بحكم مصر، كانوا يتعاملون معه، وعندما أعلن

بوضوح منهجه واستراتيجيته وأهدافه، تجاهلوا ذلك، وتصرفوا وكأنه لم يقل شيئا هاما وخطيرا. وكان عدم الاعتراف بأحقية السادات فى المنصب وراء محاولة الانقلاب العسكرى التى بدأها فوزى قبل أن يوارى عبدالناصر التراب، ثم تمكن الفريق محمد صادق رئيس الأركان من إفشالها، وأوقف دوران الآلة الانقلابية. وكانت هناك محاولة أخرى لإبعاد السادات عن المنصب، فأثناء اجتماع اللجنة التنفيذية للاتحاد الاشتراكى العربى الذى دعا إليه الرجل لمناقشة الوضع بعد وفاة عبد الناصر، قال حسين الشافعى: إنه يخشى من نتائج اسم السادات كرئيس لمصر، فقد يرفضه الشعب، وهذا الرفض سيعنى رفض ثورة ٢٣ يوليو، بما يمثل إحراجا بالغا للجميع.. وورطة لمصر.. ورد السادات بقوة لإحباط هذه المحاولة بقوله: إنه يملك الشجاعة الأدبية للتخلى عن حقه فى رئاسة مصر، ودعوة اللجنة التنفيذية من جديد لاختيار مرشح آخر، وذلك حرصا منه على تسليم المسئولية لرئيس منتخب من الشعب. وانتهت المناقشات بتسمية السادات مرشحا لرئاسة الجمهورية، وفعلا تم انتخابه يوم ١٥ أكتوبر ١٩٧٠م.. ومنذ اليوم الأول، بل ومنذ ما قبل اليوم الأول، أخذ الرجل يتحرك لتثبيت أقدامه، ولكسب الوقت والعمل من أجل الفوز بثقة المواطنين. كان يعرف طريقه جيدا، فلقد ظل لسنوات يدرس ويخطط وينتظر، وكان مخططه للفوز بالرئاسة خلفا لعبدالناصر يعتمد على الصبر والمداهنة والتعمية، وكان لزوجته الفضل فى جعل بيته واحة يجد فيها عبدالناصر راحته من متاعب المسئولية وضغوط العمل، وقد نجحت أيما نجاح فى ذلك. كانت نية السادات تتجه للحرب، ولكنه وعلى ضوء ما سمع وما كان يعرفه من معلومات عن أوضاع القوات المسلحة من قبل، كان فى حاجة إلى وقت للاستعداد على كل المستويات العسكرية والسياسية والمدنية بما فى ذلك الاقتصاد. كانت مصر قد قبلت مبادرة روجرز، وفعلا تم وقف إطلاق النار على الجبهة اعتبارا من يوم ٨ أغسطس عام ١٩٧٠م، ولكن كانت فترة المبادرة ستة أشهر، وفى يناير ١٩٧١م كان على السادات أن يتخذ قرارا بعد مرور هذه الفترة. وأثناء اجتماع للجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى لمناقشة الأمر، كانت وجهة نظر فوزى وباقى أعضاء مجموعة الورثة تتمثل فى استئناف معارك الاستنزاف مع إسرائيل.. ولم يكن الأمر بالنسبة لهم مجرد العودة إلى سياسة إطلاق النيران، بل كان أكثر عمقا وخطورة، فقد كانت هذه المعارك هى الطريق لبقاء الأوضاع كما هى، أى استمرارهم على مقاعد السلطة، وعجز السادات عن الإقدام على

التخلص منهم.. خاصة من وزير الحربية الذى يقود العمليات ضد العدو، لأن معنى الاقتراب منه يساوى الاتهام بالخيانة. ولم يكن السادات بالرجل الساذج لكى تمر عليه مثل هذه المناورة التى استهدفت إحراجه وحصاره، لذا أعلن أنه لن يوافق على استئناف معارك الاستنزاف إلا بعد استكمال منظومة الدفاع الجوى، خاصة عن صعيد مصر، لتأمين كل المنشآت من غارات العدو الجوية.. وبمثل هذا المنطق تمكن من الالتفاف حول اقتراحهم، ثم أكمل بطرح اقتراح بتجديد مبادرة روجرز لمدة شهر واحد، ينتهى يوم ٧ مارس ١٩٧١م. ولم يكن أمامهم سوى القبول بالاقتراح، خاصة أن فترة الشهر ليست بالفترة الطويلة. وكسب السادات مساحة من الوقت.. ويوم ٤ فبراير ١٩٧١م، فاجأ الجميع وهو يتحدث أمام مجلس الشعب بطرح مبادرة للسلام، عمادها: انسحاب إسرائيل بعيدا عن ضفة القناة، وحتى منطقة المضايق الجبلية فى سيناء، ثم العمل على إعادة فتح قناة السويس للملاحة بعد أن تعبر القوات المصرية للسيطرة على الضفة الشرقية للقناة، كما تضمنت مد فترة وقف إطلاق النيران لمدة ستة أشهر بجانب الاستعداد لإعادة العلاقات مع الولايات المتحدة.. أدى إعلان المبادرة إلى إصابة مجموعة الورثة بالوجوم، كان الأمر شديد الوقع، لأن السادات لم يناقش الأمر معهم من قبل، ولم يخبرهم بنيته، كانت المفاجأة صاعقة. فها هو يخرج بشكل كامل عن فكرة أو مبدأ القيادة الجماعية التى سبق أن التزم بها، ويتحداهم ويحشرهم فى مساحة ضيقة، ويحول بينهم وبين القدرة على مواجهة الأمر، بعد أن تحولت المبادرة إلى أمر واقع على المسرحين الإقليمى والعالمى. ولأول مرة: يسمع العالم صوتا موضوعيا ومختلفا عما كان يقال على لسان المسئولين العرب على امتداد سنوات الصراع. كما أن المبادرة كانت التعبير القوى الثانى عن استراتيجية السادات فيما يتعلق بالحرب والسلام، وبها اقترب من صناع السياسة والقرار بدول العالم الكبرى.. وإن أدركوا كما كان هو يدرك أن الوضع لم ينضج بعد لمثل هذه المبادرة، فمازالت القوى العالمية تنظر لمصر كدولة واجهت الهزيمة وعليها أن تقبل بما يفرضه الواقع أو أن تعمل على تغيير هذا الأمر الواقع. ولكن السادات، كسب وقتا كان فى حاجة إليه، وأعطى إشارة مبكرة أنه قائد يمكن التفاهم معه، وأنه فى النهاية يريد السلام ولكن ليس بأى ثمن. وتفاعلت العوامل الداخلية والخارجية، وفى النهاية أعلن الرئيس السادات يوم ٧ مارس ١٩٧١م أن مصر غير ملتزمة بوقف إطلاق النار، وأوضح انتهاء مبادرة روجرز، وفى الوقت نفسه قرر

عدم تجديد معارك الاستنزاف. لقد تبين أن الوقت مازال مبكرا للقبول بمبادرة السلام التى أعلنها.. وفى الوقت نفسه لم يكن متاحا له الاستمرار فى القبول بمبادرة روجرز، وما ترتب عليها من وقف لإطلاق النيران بالجبهة، فأعلن نهايتها، ولكنه لم يمض حتى نهاية الطريق، ويعلن أو يقرر العودة إلى حرب الاستنزاف. وبرغم رضا مجموعة الورثة عن إلغاء مبادرة روجرز إلا أنهم لم يكونوا سعداء بموقفه من حرب الاستنزاف. وحاول الفريق أول فوزى استدراج السادات للتوقيع على قرار بتجديد معارك الاستنزاف، بأن قدم له القرار للتوقيع وهو يهم بركوب سيارته بعد انتهاء اجتماع للمجلس الأعلى للقوات المسلحة.. إلا أن السادات تنبه وقرأ الورقة المقدمة له بعناية.. بعدها وبخ وزير الحربية على مثل هذه المحاولة البعيدة عن الصواب، وشرف القصد. وانتهى الصراع على السلطة بين الرئيس ومجموع الورثة بنجاحه فى التخلص منهم ومحاكمتهم ووضعهم فى السجن، وبذلك جمع فى يده أهم خيوط السلطة، وواصل بعد ذلك سياسة كسب الوقت، فأعلن أن عام ١٩٧١م هو عام الحسم، ومر العام دون حسم!! وكان فى حاجة لوقفة مع الصديق السوفييتى أمام استمرار المماطلة.. وفى النهاية قرر إنهاء مهمة المستشارين والخبراء والقوات السوفيتية فى مصر فى يوليو ١٩٧٢م. وفى أكتوبر أقال وزير الحربية محمد صادق واستكمل حلقات السيطرة على مفاتيح السلطة وصمد فى مواجهة ضغوط الشارع المصرى إلى أن أطلق الحرب من عقالها فى أكتوبر ١٩٧٣م، وحقق نصرا هائلا على القوات الإسرائيلية.. وبالنصر حقق المرحلة الأولى من استراتيجيته كما أعلن عنها فى أول اجتماع له بالمجلس الأعلى للقوات المسلحة، بعدها بدأ مسيرة السلام بتوقيع اتفاق الفصل الأول بين القوات فى يناير ١٩٧٤م وواصل مسيرته السلمية بتوقيع اتفاقية الفصل الثانى. ولم تعد مثل هذه الخطوات أو الاتفاقيات تصلح للمرحلة المقبلة. كان السادات يعد المسرح عالميا وإقليميا ومحليا لخطوة غير مسبوقة، وبعد انتهاء مرحلة الإعداد فاجأ العالم بزيارته لإسرائيل فى هذه الليلة من نوفمبر ١٩٧٧م، كان السادات هو الشخصية التى كسبت رصيدا هائلا بإسرائيل. ومن بين كل القادة والمسئولين الذين التقى بهم كان «عزرا فايتسمان» من القلة التى تعاملت معه ببساطة ومودة واقترب منه على المستوى الإنسانى. ومن طرائف اللقاء الأول بينهما، أنه قال وهو يصافحه: «أى شيطان أوحى لك بفكرة زيارة إسرائيل، وإحراجنا جميعا داخل الدولة حكومة وشعبا، ولكى تكسب قلوب الناس، خاصة من خسروا آباء أو أبناء فى

الحــرب؟!!». ثم قال له: لقد طرح البعض مخاوفهم مــن أن تكون المبادرة خدعة هائلة، حيث ســتكون فى الطائرة مجموعات من المقاتلين مهمتهــا إطلاق النار على كل القيادات والشخصيات الإسرائيلية التى ستكون بانتظارك فى المطار.. فأكدت لهم أنك لست بالرجل الــذى يفعــل ذلك.. أو حتــى يفكر فى مثل هذه المجزرة، وقلت إن من يمتلك الشــجاعة للإقدام على هذه الخطوة هو رجل صادق وجرىء ويســعى لســلام حقيقى، ثم قلت إننى أضمن لكم ســلامة مقصده ونواياه، وعندما أصروا على وضع الخطط لمواجهة هذا الاحتمال تركتهم يفعلون ما يريدون، إنها المخاوف والشــكوك الإســرائيلية المتوارثة. وتنطلق موجة عالية من موجات السلام فى أعقاب زيارة الرئيس السادات لإسرائيل، وتبدأ الاجتماعات والزيارات والمناورات ويصل إلى القاهرة «عزرا فايتســمان» وزير الدفاع الإسرائيلى فى يناير ١٩٧٨م للمشــاركة فى اجتماعات اللجنة العســكرية ويســتقبله الســادات فى أسوان وفى القاهرة تبدأ الاجتماعات يوم ١١ يناير، وتتوقف.. ثم تستأنف مرة أخرى فى نهاية الشهر نفســه.. ويطلب الرئيس أن أذهب إليه فى أسوان، وأثناء اللقاء يبدى تقديره لوزير الدفاع الإسرائيلى ويقول إن موقفه من السلام تأثر كثيرا بإصابة ابنه «شاءول» فى حرب الاستنزاف إصابــة أثــرت عليه وعلى حياته، ثم ســألنى عما إذا كنت أســتطيع معرفة بعض مفاتيح شخصية الرجل.. وأعده بأن أبذل غاية الجهد، فيخبرنى أنه تحدث مع محمد الجمسى، ويطلــب منــى أن ألتقى به والتنســيق معه. وأعــود إلى القاهرة، وألتقى بالوزير الجمســى ونتحاور حول الأمر، وأســتأذنه فى أن أعــود وألتقى به بعد أن أقرأ بعضا مما هو مكتوب ومنشــور عنه. وفى اللقاء التالى ســألته عما إذا كان ممكنا أن أصاحب الرجل فى أى رحلة يقوم بها خارج القاهرة.. فيخبرنى أنه طلب أن يزور الإسكندرية، واقترح أن أكون مرافقه فى الســيارة التى يســتقلها، وأن يكون الســفر عبر الطريق الزراعى، فســألنى: لماذا؟!.. فأوضحت أن مصر لا تكشــف وجهها للزائر، إلا إذا اخترق الدلتا، فالأرض والبشــر هما جوهر الحياة، وأهم أعمدتها.. وأريد له أن يرى ذلك طوال الوقت الذى تستغرقه الرحلة. ويجرى ترتيب الأمر مع الوفد الإســرائيلى، ومع فايتســمان، ويوافق الرجل على مرافقتى له. وخلال اتصال تليفونى مع الجمسى قبيل بدء الرحلة أسأله عما إذا كان ممكنا أن ينصح وزير الدفاع الإسرائيلى بزيارة سريعة لطنطا، كأكبر مدينة بوسط الدلتا، فيقول إنه سيقترح عليه ذلك، وهنا أرجوه ألا تكون هناك تشريفة وأن تمضى الأمور بصورة طبيعية، وألا تعوق

الإجراءات الأمنية هذه الخطوة لأننى أسعى لمعرفة رد فعله على كثافة الزحام، وتأثير ذلك على حركة المرور فى شوارع المدينة، وسأتولى توضيح تدفق الزائرين من مختلف مدن الدلتا على طنطا لزيارة السيد البدوى، ومن هو الرجل ودوره الدينى والجهادى. وأتلقى اتصالا تليفونيا يفيد اعتراض الفريق الأمنى على فكرة التوقف فى طنطا، وبعد حوالى الساعة يحدثنى الرجل ويقول إن فايتسمان راقت له فكرة المرور فى شوارع طنطا ومشاهدة مسجد السيد البدوى. ونبدأ الرحلة.. وأسأل الرجل عما تبقى فى ذاكرته عن فترة وجوده فى مصر؟!.. ويستفيض الرجل فى الحديث بكثير من الحميمية عن هذه الفترة، وتخترق السيارة منطقة شبرا الخيمة وأول طريق القاهرة الإسكندرية، ويلاحظ الرجل بعضا من فوضى المرور وعبور المشاة للطريق من أى منطقة دون مبالاة بالخطر أو بالسيارات التى تقطع الطريق بسرعة، وكثرة عدد السيارات من مختلف الأنواع، وبعد عدة كيلومترات يلاحظ أن الناس تعبر الطريق وهى تقود المواشى، ويسألنى ألا يوجد من ينظم حركة المرور ويفرض احترام القواعد، فأقول بالطبع يوجد، ولكن الواقع أقوى من المرور ورجاله، فإذا كانت الحقول على جانب من الطريق، والمنازل على الجانب الآخر، فإن الحل السهل هو اجتياز الطريق ومحاولة تجنب المخاطر بقدر الإمكان، ولقد كان من الصعب بناء أنفاق أو كبارى علوية على مسافات متقاربة للتيسير على الناس، وتمكينهم من عبور الطريق، وتجنب المخاطر، والسبب الأهم تمثل فى عدم توفر الموارد المالية لتنفيذ هذا العمل. كانت عيناه ترصد ما يراه، حركة دائمة على الطريق، كل شىء يتحرك، سيارات النقل والملاكى والدواب والدراجات والموتوسيكلات والأتوبيسات من كل الأحجام والأنواع والميكروباصات. وقد قال إن إسرائيل لا تعرف أبدا مثل هذه الكثافة على الطرق، فعقبت قائلا: إن عدد السكان محدود والدولة مساحتها لا تتجاوز ٢٠ ألف كيلومتر مربع بخلاف مساحة الأراضى المحتلة من مصر وسوريا والأردن وفلسطين. فقال بسرعة إسرائيل لم تحتل أبدا أرضا فلسطينية، فعقبت إنها قضية للمناقشة لا للجدل، وللحقائق التاريخية لا لمنطق القوة والأمر الواقع. ولاحظ زحف المبانى على الأراضى الزراعية المجاورة للطريق وكثرة عدد المنشآت المتعددة النشاط: المقاهى والمطاعم والورش والمساكن والمساجد، ولكن الملاحظة الأهم كانت فى كثرة عدد القرى على الجانبين، فبين كل قرية وقرية توجد قرية ثالثة، بالإضافة إلى وجود مدن صغيرة كثيرة، واستفسر عن أسماء بعض هذه القرى والمدن، وسألنى عن

عددها؟!.. فقلت له: هناك بمصر أكثر من خمسة آلاف قرية، فتساءل: خمسة آلاف؟!.. فقلت له: نعم.. وأكدت أنها جميعا مكتظة بالسكان، وهناك دائما محاولات للبناء على الأراضى الزراعية بالمخالفة للقانون فى معظم الأحوال لاستيعاب الأسر الجديدة. فقال إنها بالقطع مشكلة مستعصية أمام الحكومات المصرية. فقلت إنها واحدة من المشكلات.. ولم تتوقف الملاحظات أو التساؤلات، وكنا مازلنا فى بداية الطريق!!!

❑❑❑

# عندما اعترى فايتسمان الانزعاج !! (٢)

كانت السيارة تقطع الطريق إلى الإسكندرية بسرعة متوسطة حتى يتمكن ضيف مصر «عزرا فايتسمان» وزير الدفاع الإسرائيلى ورئيس الوفد المشارك فى اجتماعات اللجنة العسكرية التى بدأت أعمالها بالقاهرة فى يناير ١٩٧٨م، أى بعد شهرين تقريبا من زيارة الرئيس السادات لإسرائيل عام ١٩٧٧م. وبالرغم من أن الرجل قرأ كثيرا عن مصر وعاش بها فترة غير قصيرة خلال مرحلة الشباب، وشاهد مئات أو آلاف الخرائط العسكرية وغير العسكرية والصور الجوية لمئات الطرق والمنشآت والأهداف العسكرية والمدنية باعتباره قائدا عسكريا بارزا، إلا أن ردود أفعاله وملاحظاته على ما يراه خلال الرحلة كانت تعبر عن حالة الدهشة والمفاجأة وفيما بعد الانزعاج بل الانزعاج الشديد. ومن خارج السيارة شاهد فلاحا يحرث أرضه بمحراث قديم وتقليدى، فطلب من السائق أن يقترب منه، أى أن يخرج من الطريق إلى طريق جانبى لكى يلتقط صورة للفلاح والمحراث، فاستأذنته أن نكتفى بالتوقف على جانب الطريق، وبدت عليه كل علامات الدهشة، وأنا أشرح له أن هذا المحراث هو المحراث نفسه الذى كان يستخدمه الفلاح الفرعونى.. وقال ربما تكون مصر هى الدولة الوحيدة التى مازالت تستخدم مثل هذا المحراث وتساءل: ولماذا تأخر الفلاح فى استخدام المحراث الميكانيكى، فأكدت له أن هناك عملية توسع فى استخدام هذا المحراث، ولكن الأغلبية سواء بسبب الملكيات المحدودة، أو قلة الدخل تواصل استخدام المحراث التقليدى، وواصلت قائلا: إن معظم الفلاحين مازالوا يستخدمون السواقى والطنابير، وأحيانا الشواديف لرى الأرض، وأن عملية الرى مازالت تتم بأسلوب الغمر، لا الأسلوب الحديث أو الأساليب الحديثة والمتطورة للرى، مثل الرى بالتنقيط، وقلت له إننا سنمر على عدد من السواقى، وسنتوقف أمام واحدة منها. فسأل مستفسرا، ولماذا لم تستخدم مصر أساليب الرى المتطورة، فقلت لأنها مكلفة، والأهم أنها تعتمد على الطاقة الكهربائية، وهى حاليا لا تكفى لاحتياجات المصريين، فالطاقة المنتجة أقل من الاحتياجات الحالية المختلفة. وانتقلت لأقول له إن موارد مصر قد استنزفتها سنوات الحرب مع إسرائيل، وإن السلام سيتيح لها إعادة بناء ما خربته الحرب وما تأخر تنفيذه من برامج تنموية اقتصادية واجتماعية، فقال: إن مثل هذه الأبعاد غير واضحة أو غير مفهومة فى إسرائيل، وأكد أنه يراها الآن بصورة مختلفة عما

كان يراها من قبل. ورأيت ساقية على يسار الطريق، فسألته هل يتوقف ليتابع حركتها من هذه المسافة، أم نتحرك على أمل أن نجد واحدة على يمين الطريق، فقال أفضل أن تكون على يمين الطريق حتى أراها عن قرب، فمثل هذه المشاهد تظل فى الذاكرة طويلا، لأنها تحفر مسارا يرتبط بأبعاد كثيرة سيكون لها تأثير مباشر على العلاقات بين البلدين، ثم التفت إلى وسألنى: هل قرأت شيئا عن التطور الزراعى فى إسرائيل؟!.. فأجبت بأننى قرأت الكثير، فقال: إن السلام بين البلدين سيفتح أبوابا كثيرة للتطور المتبادل. وطوال الوقت كان يتابع بانزعاج لم يحاول أن يخفيه حركة الناس على الطريق وفى الحقول تحديدا وكأن الأرض مزروعة بالبشر، وسألنى عما إذا كان اليوم إجازة أو أن هناك مناسبة ما تقتضى أن يخرج الناس؟!.. فقلت له: إن ما يراه هو الحركة العادية اليومية لهم. كانت السيارة قد اقتربت من مدينة بنها، فشاهد محلات ومقاهى ومطاعم وورش إصلاح سيارات وإطارات، ولاحظ أن سيارات النقل تتجمع فى عدة مناطق على جانبى الطريق، أما السيارات الملاكى فتتوقف أمام مقاهى ومطاعم على الطريق مباشرة، فأوضحت له أن لسائقى سيارات النقل احتياجات تختلف عن احتياجات الذين يستخدمون السيارات الملاكى، لذا اختلفت الأماكن التى يترددون عليها. ولأول مرة ألاحظ أن عدد سيارات النقل والملاكى كثيرة بصورة ملفتة للنظر فعلا. وخلال اختراق السيارة لمدينة بنها قال: كنت أتصور أن القاهرة هى المدينة المزدحمة باعتبارها العاصمة، فقلت له: إن كل المدن تعانى من الازدحام وزيارة نسبة الكثافة السكانية بها، وأردفت قائلا: إن عدد سكان مصر كان عام ١٩٥٢م يبلغ ١٨ مليون نسمة تقريبا، أما الآن فعدد السكان بلغ مثلى هذا الرقم. وبعد أن عبرنا النيل، كان الانزعاج قد نال منه، وهو يتابع هذه الأمواج البشرية، فقال متسائلا: ألا من نهاية لهذا التدفق البشرى؟! وبهذا التساؤل وضعت يدى على واحد من أهم مفاتيح التفكير التى كنت منذ البداية أسعى وراءها، ولم يحاول أن يسمع منى إجابة، والتزم الصمت، واستغرق فى التفكير. وظلت الحالة كما هى على الطريق.. وسألته ونحن نقترب من مدينة طنطا: عما إذا كان مازال راغبا فى مشاهدة المدينة من داخل السيارة؟!.. فقال: نعم.. مازلت راغبا.. فاستأذنت أن ندخل المدينة فى سيارة واحدة، فوافق وأصبح برفقتنا داخل السيارة اثنان من رجال الأمن بدلا من واحد. وبدأنا نسير فى شوارع المدينة باتجاه مسجد السيد البدوى، وأجبرنا الزحام على التحرك ببطء، وبدأ يتصرف كسائح ويسأل ويستفسر ويستوضح ويعبر عن ملاحظاته. وشرحت له أن الخدمات والمرافق ليست فى حالة جيدة، وأن عمليات الإحلال والتجديد والصيانة بالنسبة لمعظم

المرافق كانت مؤجلة بسبب الحرب. وأوضحت له أن المواطنين من مختلف مدن وقرى الدلتا يتدفقون لزيارة ضريح السيد البدوى للتبرك به، وأن يوم الجمعة من الأيام التى يصعب فيها السير فى شوارع المدينة، أما خلال الاحتفال بمولده، فلا مجال لحركة السيارات، وواصلت قائلا: إن عدد الزوار خلال المولد يتراوح بين مليونين وثلاثة ملايين زائر، معظمهم يفترش الطريق. وقلت له إن صاحب الضريح رجل صوفى تقى نقى أخلص فى عبادة الله، وسار على نهجه عشرات الآلاف من الناس.. وأثناء الغزو الصليبى قاد أتباعه لقتال الغزاة، فاستحق لقب الصوفى المجاهد. وكان مما قلته إن هناك باعة تخصصوا فى بيع أنواع من الحلوى والحمص، واقترحت أن أشترى لهم بعضا منها، فوافق، فنزلت وحدى واشتريت كميات صغيرة عدت بها إليهم، وسرعان ما بدأوا فى تذوقها وأبدوا إعجابهم بها. وغادرنا المدينة وهو يقول: إن مصر التى أراها الآن تختلف كثيرا عن مصر التى فى التقارير.. أو فى الأوراق. وسألنى: هل تتشابه كل المدن المصرية، أى هل تشبه كل مدن الدلتا مدينة طنطا؟!.. فقلت له: لا يوجد اختلاف كبير بين كل هذه المدن. وعدت لأسأله عن رؤيته للسلام ولمهمة اللجنة العسكرية؟! أى بدأت أقوم بواجبى كصحفى يسأل مسئولا إسرائيليا يلتقى به لأول مرة. كان الرجل صريحا وواضحا، ثم قال إن إجابتى على أسئلتك الآن قد لا تكون كلها للنشر، فأكدت له إننى أعرف ذلك، وتطرق الحوار إلى أبعاد قضية السلام والانسحاب من كل سيناء بما فى ذلك المستوطنات ومدى الارتباط بين عمل اللجنتين السياسية والعسكرية، وعما إذا كان هو شخصيا من المتفائلين أو المتشائمين؟!.. وعندما سألته عن الرئيس السادات وعما قاله له عندما التقى به لأول مرة فى إسرائيل؟!.. عبر عن احترامه العميق له ولشجاعته لا فى قرار الحرب فقط، بل على الإقدام على هذه الخطوة البالغة الجرأة والاتزان، وحسن الفهم، والتى تمكن بها من حصار كل القوى السياسية فى إسرائيل بسلاح السلام، الذى تمثل فى زيارته كأول مسئول عربى يقتحم علينا بيتنا، ويقول: ها قد أتيت إليكم من أجل السلام.. فماذا أنتم فاعلون؟! وعندما وصلنا إلى الإسكندرية تركت «عزرا فايتسمان» ليقوم بزيارته للمدينة، ولأعود أنا إلى القاهرة فى اليوم نفسه.. وقبل أن أتوجه إلى منزلى، توجهت للقاء الفريق أول الجمسى، لأحيطه علما بالإطار العام للرحلة، ولأقترح السفر إلى أسوان للقاء الرئيس. وخلال مكالمة تليفونية، طلب السادات من الجمسى أن أسافر إلى أسوان صباح الغد.. وقررت أن أكتب تقريرى عن الرحلة قبل أن أتوجه للنوم.. وقد راعيت أن يكون مختصرا. وفى أسوان سلمت التقرير للرئيس فوضعه جانبا، وطلب أن أحكى له ما جرى. فقلت

له : لقد أردت أن يرى الرجل الكثافة السـكانية لمصر واسـتمرار حركة الحياة، ولم يكن هناك أفضل من رحلة طويلة نخترق فيها الدلتا.. وفعلا كان الرجل مندهشا وحائرا ومنزعجا وهو يتابع ويلاحظ حركة الناس، وكأن وجودهم حدث فجأة.. أى وكأنهم لم يكونوا من قبل، أو لم يكن وجودهم بهذه الصورة، أو هذا البروز.. ووصلت إلى النقطة التى انفجر عندها قائلا: ألا من نهاية لهذا التدفق البشرى؟! فقال السادات، شكرا لقد أعطيتنى مفتاحا من المفاتيح الرئيسية لشخصيته، وتفكيره.. وأعتقد أنه سـيكون من أقوى العناصر المؤيدة للسـلام.. أولا.. بسبب إصابة ابنه فى الحرب.. وثانيا.. لسـبب موضوعى، هو اقتناعه على ضوء الصدمة التى اعترته، بأن الكثافة السكانية المصرية لم يجر وضعها فى الاعتبار فى مكانها الطبيعى من قبل، كانت تناقش كأرقام باردة لا كواقع حى، وقد اصطدم هو بهذا الواقع الحى وتأكد، أن هذه الكتلة السكانية باقية ولا يمكن إلحاق الهزيمة النهائية بها، ومستمرة فى وجودها فى كل الأحوال. ثم أردف قائلا: لقد أقنعته بطريق ناعم وغير مباشر، بأن مصر جادة فى طلب السلام، وأن مشاريعها متوقفة بسبب نقص الموارد التى اسـتنزفتها سنوات الحرب مع إسـرائيل.. وأن هؤلاء البشر يتطلعون لحياة ومرافق وخدمات أفضل، ويتطلعون لزراعة عصرية متطورة تستخدم الأجهزة والآلات والمعدات الحديثة، ولتطور صناعى وتقدم اقتصادى. وسألنى: هل كنت تقصد كل ذلك وأنت تركز على مشاهدته للمحراث والساقية؟!.. ثم انتقل ليسألنى: لماذا اقترحت دخول طنطا؟! فقلت: لقد أردت أن أحكى له قصة السيد البدوى.. الصوفى المجاهد فى سبيل الله، وأنه قدوة لعشرات الآلاف مـن المريدين، كمـا أردت أن يرى أن هؤلاء المريدين يفدون بالآلاف على المدينة لزيارة ضريحه، والتبرك به، ثم كنت أريده أن يرى الشوارع والمرافق والخدمات كما هى فى الواقع، متخلفة ومهترئة وفى حاجة إلى استثمارات ضخمة. وكرر شكره لى.. وقال: إنه سيقرأ التقرير، وسيرسل لى خطاب شكر، فقلت له: هناك قضية حيرتنى، ومعى كثير من أبناء جيلى من بين قضايا كثيرة محيرة، فيما يتعلق بـ ٢٣ يوليو وهذه القضية هى الشعارات التى رفعتها الثورة، وإننى أرجو أن يتسع وقته لأطرحها عليه. مد يده إلى البايب وبدأ فى إشعاله، وهو يطلب منى أن أبدأ حديثى.. وطرحت عليه القضية، بل قل إننى بدأت فى محاولة معرفة بعض من أسرار ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م.

❑❑❑

# الفصل الثالث عشر

## حوار مع السادات حول شعارات ٢٣ يوليو

كانت معنويات السادات عالية عندما التقيت به فى أسوان فى يناير ١٩٧٨م فمنذ أيام استقبل «عزرا فايتسمان» وزير الدفاع الإسرائيلى ورئيس الوفد العسكرى المشارك فى أول اجتماع للجنة العسكرية بالقاهرة. وكان «فايتسمان» الذى شغل من قبل منصب قائد القوات الجوية ورئيس هيئة عمليات القوات المسلحة الإسرائيلية قبل أن يتسلم مسئولية منصب وزير الدفاع فى حكومة «مناحم بيجين» يعد من الصقور، هذا إذا ما صدقنا أن فى إسرائيل صقورا وحمائم فتطورات الأحداث طوال سنوات الصراع العربى الإسرائيلى أكدت أن المعاناة لم تتوقف فى ظل أية حكومة إسرائيلية سواء أكانت من الحمائم أم من الصقور. وتحولت إسرائيل من مجرد مشروع استعمارى استيطانى ورد فى كتاب الدولة اليهودية لتيودور هيرتزل وفى قرارات المؤتمر الأول للحركة الصهيونية فى «بازل» السويسرية عام ١٨٩٧م إلى دولة عام ١٩٤٨م أى بعد ٥٠ عاما فقط. ومنذ قرار التقسيم الذى أصدره مجلس الأمن عام ١٩٤٧م وحتى معركة أكتوبر ١٩٧٣م واصلت الحكومات الإسرائيلية الافتئات على الحقوق الفلسطينية والعربية إلى أن أصبحت كل أراضى فلسطين فى قبضة الدولة الإسرائيلية عقب نكبة يونيه ١٩٦٧م ولكن كل هذا النجاح لا يرجع إلى عبقرية وذكاء القيادات السياسية والعسكرية الإسرائيلية بل إلى تخلف العدد الأكبر من الزعامات العربية التى تحملت المسئولية على امتداد هذه الفترة فالكل وقعوا فى أخطاء كارثية أو تقاعسوا عن حمل مسئولياتهم أو ساروا خلف طموحاتهم ومصالحهم فقط وأداروا ظهورهم للقضية الفلسطينية والمصالح العربية. فالملك «عبدالله» ملك إمارة شرق الأردن كان يعمل من أجل توسيع مملكته وأوكل قيادة جيشه للجنرال «جلوب» الإنجليزى أما القوات العراقية فقد تركت ظهر القوات المصرية مكشوفا أمام القوات الإسرائيلية وعندما طالبتهم القيادات العسكرية المصرية بتحمل المسئولية قالوا «ماكو أوامر» أى لا توجد لديهم أوامر، ولم يختلف موقف المملكة الهاشمية فى العراق عن المملكة الهاشمية فى الأردن، وبالنسبة لسوريا فقد تقاعست عن دفع قواتها إلى مسارح العمليات أما باقى الدول العربية فلم تكن لها قوات

يعتد بها، وبالنسبة للقوات السودانية فقد كانت عند حسن الظن بها. المهم هنا أن جيوش سبع دول عربية لم تتمكن من حشد قوات بمسرح العمليات مساوية أو مكافئة للقوات الإسرائيلية ويمكن أن تعترى كل المراقبين الدهشة من قدرة اليهود على حشد قوات مقاتلة تتفوق كما وكيفا على القوات العسكرية العربية وفى حين كانت القيادة العسكرية الإسرائيلية موحدة كانت القيادات العسكرية العربية متعددة ولا يجمع بينها شىء مشترك. وهكذا ولدت دولة إسرائيل بفضل أخطاء وخطايا الزعامات العربية التى بدأت منذ بدء تنفيذ مخطط إقامة دولة إسرائيل على أرض فلسطين. وعندما صدر قرار التقسيم عام ١٩٤٧م رفضه العرب تمسكا بالحقوق الكاملة دون أن تكون لديهم القوة التى تحمى هذه الحقوق أو تدافع عنها. كانت الحكمة وتوازنات القوى ومقتضيات السياسة وفهم قواعد الحركة على المسرح العالمى تفرض على العرب قبول القرار أولا، وعندما يتحسن موقفهم فيما بعد يمكنهم التحرك إلى الأمام ولكنهم وهم فى حالة غيبوبة وتخلف رفضوا. وبعد ٨ سنوات من الميلاد أقدم رئيس مصر على تأميم قناة السويس فى يوليو ١٩٥٦م دون أن يضع فى اعتباره أو دون أن يحسب حسابات تدخل كل من بريطانيا وفرنسا عسكريا للدفاع عن مصالحهما فى القناة ولم يخطر له على بال إمكانية تحالفهما مع إسرائيل. وما لم يحسب حسابه حدث وبدأ العدوان الثلاثى فى نهاية أكتوبر ١٩٥٦م وحققت إسرائيل من انتصارها هدفين رئيسيين الأول حماية وجود إسرائيل الذى لم يعد مهددا والثانى فتح خليج العقبة أمام الملاحة الإسرائيلية، أى أصبحت إسرائيل دولة مطلة على بحرين هما المتوسط والأحمر وبالمرور فى خليج العقبة انفتح أمامها الطريق إلى شرق أفريقيا وجنوب شرق آسيا ومرة أخرى تكون أخطاء القادة العرب هى الباب الرئيسى للنجاح. وعندما نسترجع أحداث يونيو ١٩٦٧م سنتبين أن أخطاء الرئيس المصرى عبد الناصر هى السبب فى تحول إسرائيل إلى إمبراطورية فقد اندفع يحشد قواته فى سيناء بالرغم من تورط قواته فى المستنقع اليمنى منذ أكتوبر ١٩٦٢م ولم يكتف بذلك بل أقدم على إغلاق خليج العقبة فى وجه الملاحة الإسرائيلية وكان ذلك بمثابة إعلان الحرب على إسرائيل. وكان الرئيس السادات أول من تعامل مع الصراع بالحكمة والاتزان فقد استعد لمعركة هجومية وهو يرفع رايات السلام سواء بقبوله تمديد العمل بمبادرة روجرز أو بطرح مبادرة سلام فى فبراير ١٩٧١م. وفاجأ السادات العالم بانتصاره فى أكتوبر ١٩٧٣م واستثمر الانتصار واستعادة الكبرياء ليطلق

مبادرة سلام حاصر بها إسرائيل وكسب الرأى العام العالمى. كان وهو يستقبلنى فى استراحته بأسوان هادئا واثقا من نفسه ومن إستراتيجيته وهى الإستراتيجية التى أعلن عنها لأول مرة أثناء اجتماعه بالمجلس الأعلى للقوات المسلحة يوم ١٩ أكتوبر ١٩٧٠م بعد توليه مسئولياته كرئيس لمصر يوم ١٦ أكتوبر أى بعد ذلك بثلاثة أيام ولم يتوقف أمامها أحد. كثيرا ما قال للرئيس الأمريكى وللشعب الأمريكى لقد مددت يدى بالسلام منذ عام ١٩٧١م وكان متأكدا أنه يقوم بتصحيح أخطاء السنين وما وقع فيه من سبقه من رؤساء وزعماء. وقد أوضحت للرئيس السادات أن الهدف استجلاء بعض الحقائق عن شعارات ثورة ٢٣ يوليو. وقلت فى البداية أن ما أطرحه هو رؤية شريحة من جيلى الذى يختلف عن الجيل الذى قاد الثورة للشعارات التى رفعوها وطرحوها وكانت البداية شعار الاتحاد والنظام والعمل الذى تحول إلى أغنية تقول كلماتها «على الإله القوى الاعتماد فانهضى يا مصر يا خير البلاد واصعدى للمجد وامضى للرشاد بالاتحاد والنظام والعمل» وكانت تعليقاتنا سلبية فالشعار الذى كنا نردده فى الكشافة ونحن فى نهاية المرحلة الثانوية وقتذاك كان «الله الملك الوطن» وبالتالى كان تساؤلنا هل يعنى شعار الثورة تراجع أدوار الله والوطن؟ لقد سقط الملك ولكن الدين والوطن لهما حضور قوى ولا يمكن تجاهلهما. نذكر أن أحمد حسين رئيس حزب مصر الفتاة طرح قبل يوليو ١٩٥٢م شعار «الله الوطن الملك» ووجدنا أنه أفضل من شعار «الله الملك الوطن» فالوطن يسبق الملك وهذا وجدناه منطقيا ومناسبا لذا وجد منا كل القبول. ثم يأتى شعار ٢٣ يوليو فلا تجد فيه شيئا يستحق الترحيب فهو فى البداية والنهاية يفرض واجبات على المواطنين دون أى يعدهم بشىء. وتساءلنا إذا ما كانت ثورة فما هو وعدها لأهل مصر؟ لقد أطلت الثورة دون أن تعد مصر أو المصريين بأى شىء يجعل المستقبل أفضل أو الحياة أكثر جمالا وبهاء. لقد كنا قد انتهينا من دراسة الثورة الفرنسية وشعارها البراق «حرية إخاء مساواة» لقد قدمت وعودا للمواطنين بل لكل الأوربيين، أضاءت لهم الحياة وقدمت لهم منارات للحركة على المسرح السياسى والاجتماعى. كما أنها فى الوقت نفسه قدمت شعارا مقبولا يحظى بالرضا الجمعى ودفعت شعارات الكنيسة ومبدأ التثليث إلى الخلف ولو قليلا وأعنى.. الأب والابن والروح القدس. لقد راعى الثوار أن يكون شعار الثورة ثلاثيا ومماثلا لشعار الكنيسة كمقدمة لكى يحل محله. ولم تكن هناك مقارنة بين شعار الثورة الفرنسية والثورة المصرية يوم ٢٣ يوليو

١٩٥٢م. وبعد هذا الشعار طرح الثوار شعار «ديمقراطية اشتراكية تعاونية» وكنا قد تقدمنا بالمرحلة الجامعية وأتاحت لنا دراستنا للقانون فهما أفضل للأوضاع خاصة والأساتذة يتعاملون معنا كأبناء وكان ردنا أو رد بعضنا ساخرا حيث تم طرح شعار «طعمية ملوخية مهلبية» لقد كان شعارا ساذجا بل شديد السذاجة ولا يعكس أى فهم للنظريات والعلوم السياسية. وبعد سنوات على قمة السلطة طرح الثوار المبادئ الستة التى وردت فى دستور عام ١٩٥٦م الثلاثة الأولى منها هى القضاء على الاستعمار وأعوانه وعلى الإقطاع وعلى الاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم والمبادئ الثلاثة التالية كانت إقامة جيش وطنى قوى وعدالة اجتماعية وديمقراطية سليمة. والمبادئ بهذه الصورة كشفت عن التالى: أن الثوار يعرفون جيدا من يريدون القضاء عليهم أى الاستعمار والإقطاع والاحتكار. أما مبادئ البناء فقد جاءت عامة مبهمة ولا تحمل وعودا محددة وواضحة. والذى نعرفه جيدا أن الحركة الوطنية المصرية كانت تعمل بكل همة من أجل القضاء على الاستعمار فما هو الجديد بالنسبة لنا عندما يعدنا الثوار بالقضاء على الاستعمار أما الإقطاع فكان واضحا أنهم يريدون القضاء على كبار الملاك لأن مصر لم تعرف الإقطاع بالصورة التى كانت معروفة فى أوربا حيث يمتلك الإقطاعى الأرض ومن عليها من بشر. أما فى مصر فكان الملاك يملكون الأرض ولا ملكية أو سيطرة لهم على البشر قد يسيئون معاملتهم ويضغطون عليهم ولكنهم لم يكونوا أبدا عبيدا بالنسبة لهم. كما أن مفهوم الاحتكار أمر نسبى فى بلد زراعى مازال يحبو على طريق الصناعة ولا يعرف الشركات الكبيرة المنتجة القادرة على ممارسة الاحتكار. وفيما يتعلق بالبناء بعد مرحلة القضاء على أعداء مصر الثلاثة فإن بناء الجيش الوطنى القوى هو واجب كل النظم السياسية وبالتالى فهو لا يمثل وعدا ثوريا أما العدالة الاجتماعية فكانت شيئا مبهما؛ لأنها لم تستند إلى جذور دينية أو سياسية وقد ظلت كذلك ولم يحدث أن جرى توضيح أبعاد وجذور هذه العدالة. وفيما يتعلق بالديمقراطية السليمة لم يقل لنا الثوار من الذى سيحدد سلامة الديمقراطية؟ إننا نعرف الديمقراطية وندرسها ولكن وصفها بأنها لابد أن تكون سليمة يعنى وجود من يحاول أن يفرض علينا تصوره لها أو من يحاول تضليلنا لكى يستمر قابضا على السلطة بكل قوة. هكذا نظرنا إلى المبادئ الستة وهكذا أوضحها وشرحها لنا أساتذة كبار بكلية حقوق الاسكندرية من أمثال الدكتور عبدالحميد متولى والدكتور حسين فهمى عميد الكلية وقتذاك أى منتصف الخمسينيات. وبعد الوحدة

مع سوريا والاحتكاك بحزب البعث وشعاراته طرحت علينا السلطة ابتداء من عام ١٩٦١م، أى بعد الانفصال شـعار اشتراكية حرية وحدة. كان الشـعار جيدا وواضحا وسياسيا بكل المعانى ولكنه كان يعنى بالنسـبة لنا أن الحرية مشـروع مؤجـل ويأتى دورها بعد تحقيق الاشتراكية ووفقا للظروف التى كانت مصر تمر بها والصراعات الدائرة مع كل القوى تقريبا فإن الأمر سيتطلب عدة عقود قبل الوصول إلى مرحلة الحرية. كان واضحا بعد سنوات طوال أن ثـوار يوليو لم يتمكنوا من طرح شـعار جيد ينال رضـا واقتناع الرأى العام ولكن ذلك لا يمنـع أن عبـد الناصر تمكن من صعود قمة من قمـم الزعامة خلال فترة حكمه وبالرغم من الهزيمة الموجعة فى يونيو ١٩٦٧م فقد ظل متماسـكا واحتفظ بوزن نسـبى عند الجماهير. كنـت قد تحدثت طويلا ولكننى حرصت على اسـتثمار الفرصة لأطرح وجهة نظرى حول شعارات الثورة لكى أستمع إلى ما يقوله الرئيس. وبهدوء قال السادات لقد كانت مجموعة القيادة للضباط الأحرار تضم عددا من المنتمين للأحزاب الشيوعية وعددا آخر من المتعاطفين أو المنتمـين للإخوان المسـلمين بالإضافة إلى مجموعة مـن أبناء العمد، ولم يكن ممكنا طرح شـعار يقبله كل هؤلاء، لذا اتفقنا على أن يكون شـعارنا الاتحاد والنظام والعمل. لقد كنا نطلـب من المواطنين الاتحاد لا الفرقة والنظام لا الفوضى والعمل من أجل النهوض بمصر، نعم لقد طالبنا المواطنين ولم نعدهم بشـىء. وأقول لك إن جمال كشخصية لا يجب أن يعد بشىء، بأى شىء لأنه يعلم أن هناك من سيحاسبه إذا ما قصر فى الوفاء بهذا الوعد أو إذا ما أوفى به بصورة لم ترض الناس. لقد ظل حريصا على ألا يعد بأى شـىء وإذا اضطر إلى ذلك وعد بأشـياء فضفاضة أو عامة لا يمكن الإمسـاك بها. فى الوقت نفسه لم يكن جمال بالشـخص الذى يحدد معالم الطريق الذى ستسـير عليه الثورة، لقد كان «براجماتيا» أى يتصرف على ضوء الواقع ويترك للظروف أن تحدد مسـار قراراته وفى ذلك كان يفضل ألا يبـادر فى معظم الأحوال وأن يكون فى موقف رد الفعل. ولأننا كنا جميعا فى مقتبل العمر فقـد كنـا نعلم من ومـاذا نكره وما يجب أن نفعله مع أعداء مصـر لقد طرحنا القضاء على الاسـتعمار والإقطاع والاحتكار. كان علينا أن نطرح ما يجمع الناس عليه لم نكن نريد أن نطرح أهدافا خلافية، كنا نكره الاسـتعمار والشـعب كله يكره الاسـتعمار لذا لم نتوقع أن يختلـف معنا أحد حول هذا الهـدف وطالبنا بالقضاء على الإقطـاع وكانت كلمة الإقطاع الاختيار الأفضل من كبار الملاك كنا نعرف أن مصر لم تعرف الإقطاع بالمفهوم الأوربى ولكن

اســتخدام كلمة الإقطاع كان الأنســب والأكثر تأثيرا خاصة عقب أحداث قريتى كفور نجم وبهوت حيث تمرد الفلاحون على الملاك الكبار وتطوع مئات المحامين للدفاع عن الفلاحين مجانا، لقد كانت قضية حظيت باهتمام الرأى العام وبما أنها كانت قبل اندلاع الثورة بعدة أشــهر فقد رأينا الاســتفادة منها. وقطعا لكم الحق فى أن تســخروا من شــعار «اشتراكية ديمقراطية تعاونية» لأننا فيما بيننا لم نشــعر بالرضا عنه وقراءتكم لشعار «اشتراكية حرية وحدة» كان صحيحا فلم تكن الحرية مطروحة فى ذلك الوقت كهدف لقد كانت على الأقل بالنسبة لجمال هدفا مؤجلا ولكنها لن تكون كذلك الآن.

❑❑❑

# الفصل الرابع عشر

## الدسائس عند السادات

بعـد انتهاء الاجتماع الصباحى لأقسـام التحرير بجريدة الأهرام، اتجهت مع عدد من الزملاء إلى الكافتيريا لتناول قدح من القهوة والدردشة قبل بدء رحلة البحث عن المعلومات والأخبار. فى تلك اللحظات تلقيت اتصالا تليفونيا من يوسف السباعى وزير الثقافة سألنى فيه عن الوقت المناسب لزيارته بمكتبه، وتم تحديد الموعد. وعندما التقينا، سألنى لماذا لم أكتـب كتبا عن معركـة أكتوبر؟ كان قد مضى عام تقريبا منذ أيام الانتصار ولم تكن الفكرة بغائبة، ولكن توالى الأحداث، وانشـغالى بالعمل اليومى لساعات طويلة، كان وراء تأجيل التنفيـذ بالرغم مـن أننى وضعت تخطيطا لثلاثة كتب.. الأول عـن الرجال الذين قاتلوا، والثانـى عن يوميات المعركة فى سـيناء والجولان، والثالث عن رؤيتى للحرب وأسـلوب المتابعة والمشـاهدات، وأجبت بأننى على الطريق. فقال: إن الرئيس السـادات، سأله عما إذا كان يعرف لماذا لم أكتب كتبا عن المعركة حتى الآن؟ وطلب أن يسمع إجابة، وتوقف ثم قال: يبدو أن هناك لغزا وراء هذا السؤال. وفوجئت به يتصل بالدكتور الشنيطى رئيس مجلس إدارة الهيئة العامة للكتاب تليفونيا، ويخبره أننى سأسلمه كتابا عن المعركة خلال أيام، وأن واجبه أن يكون لهذا الكتاب أولوية. ونصحنى بالانتهاء من إعداد الكتاب حتى لا تثـور الشـكوك حول موقفـى، وأوضحـت أننى كتبت عشـرات المئات مـن المقالات والتحقيقـات، وأدليت بعشـرات الأحاديث الصحفية، وشـاركت فى عشـرات البرامج التليفزيونية، ثم تساءلت أبعد هذا هناك من يشك أو يتشكك؟ فقال السباعى، لقد أخبرنى السادات إن أحمد إسماعيل وزير الحربية، كان مصرا على عدم عودتك للعمل بالأهرام بعد أن قرر الرئيس عودة كل المفصولين من الكتاب والصحفيين إلى أعمالهم يوم ٢٨ سبتمبر عام ١٩٧٣م، لولا تدخل الأستاذ هيكل. قلت له: لقد أساء وزير الحربية فهم ما نشره الأهرام عقب إبعاده عن منصب رئيس الأركان فى سبتمبر ١٩٦٩م، واتهمنى بالإساءة إليه والتشهير به ظلما، مع أننى أكدت له أن الأسـتاذ هيكل هو الذى كتب هذا الخبر.. فرد السـباعى

قائلا: لا تنس أن هناك من يؤكد للسادات، إنك حزين على إقدام الرئيس على إبعاد هيكل من الأهرام. وكان السادات قد قرر إقالة الأستاذ هيكل فى أول فبراير عام ١٩٧٤م، وفى الوقت نفسه قرر العفو لأسباب صحية عن مصطفى أمين وعودته للعمل بدار أخبار اليوم، كما طلب من توأمه على أمين العودة من لندن وتعيينه رئيسا لتحرير الأهرام بجانب الدكتور محمد عبد القادر حاتم الذى تسلم مسئولياته كرئيس لمجلس الإدارة. وواصل يوسف السباعى حديثه قائلا: إن هناك تقارير تم عرضها على الرئيس السادات تذكر إنك تزور كلا من محمد صادق وهيكل.. فأكدت له إننى فعلا أزور الرجلين، ولكن ذلك لا يعنى أبدا أننى قد انحزت إليهما فى صراعهما مع رئيس الجمهورية، أو أننى اتخذت موقفا سلبيا من المعركة أو من مشوار السلام الذى بدأ بتوقيع اتفاقية الفصل الأول بين القوات. فقال السباعى، سأنقل للرئيس السادات كل ما قلته، وسأخبره إنك انتهيت فعلا من كتابة كتاب عن أكتوبر. فأوضحت له، أننى سأكتب ثلاثة كتب متتالية عن المعركة، التى عشتها بكل كيانى، مثلما عاشها كل مصرى فى تلك الأيام المبهرة. وخرجت من عند يوسف السباعى، وفى داخلى تساؤلات كثيرة عن هذا المناخ، وعن كل هذه الدسائس التى أتعرض لها. فها أنذا بعد كل ما كتبت عن الحرب والسلام، تثور من حولى علامات استفهام تتعلق بإصدار كتاب عن المعركة، ويتولى البعض إثارة الشكوك حول هذا الأمر، مرة بسبب موقف أحمد إسماعيل منى، ومرة أخرى بسبب زيارتى لرئيس التحرير المبعد من الأهرام ولوزير الحربية السابق محمد صادق. وبعد هذا اللقاء بعدة شهور صدر كتابى الأول عن المعركة فى سلسلة كتاب اليوم التى تصدر عن دار أخبار اليوم، وبعد ذلك بعام صدر كتابى الثانى عن الحرب بعنوان «يوميات أكتوبر فى سيناء والجولان» عن دار المعارف ، وصدر الكتاب الثالث عن المعركة وعنوانه «من أوراق مراسل حرب فى أكتوبر» عن الهيئة العامة للاستعلامات عام ١٩٨٠م، أما الكتاب الرابع فكان عن معارك مصر مع إسرائيل منذ عام ١٩٤٨م وحتى عام ١٩٧٣م، وصدر عن الهيئة العامة للكتاب عام ٢٠٠٧م. وبعد صدور أول كتاب عن المعركة، حرصت على إرسال نسخة منه للأديب الكبير يوسف السباعى، ورد على الإهداء برسالة تهنئة وشكر بالغة الرقة. ومرت أسابيع قبل أن أتلقى منه مكالمة تليفونية، كرر فيها تهنئته، ثم سألنى عن موعد إصدار الكتاب الثانى، فوعدته بألا تطول المدة التى تفصل بين الكتابين، وفجأة سألنى، عما إذا كنت قد أهديت نسخة من كتابى

لسيادة الرئيس، فأكدت له إننى سأرسل أول نسخة من كتابى القادم. وفى يوم تسلمى نسخ الكتاب الثانى عن المعركة، أرسلت نسخة عليها إهداء للرئيس أنور السادات. وفوجئت بعد مرور عدة أسابيع بوصول رسالة من الرئيس تقول سطورها: «تلقيت بامتنان النسخة من كتابكم «يوميات أكتوبر.. فى سيناء والجولان» التى بعثتم بها هدية منكم لى.. وقد نالت كل قبول.. لقد تناولت فى الكتاب.. القرار التاريخى الذى اتخذناه للدخول فى الحرب ضد العدو الإسرائيلى.. كما وصفتم بدقة سير العمليات الحربية.. والمعارك الضارية التى دارت بين مصر وسوريا وبين العدو الآثم.. على أرض سيناء والجولان. إن شهر أكتوبر من الشهور المجيدة فى تاريخنا الحديث.. فقد رفعنا فيه أكاليل النصر فوق ربى سيناء.. وحققنا أكبر انتصار عرفه تاريخ الأمة العربية منذ أجيال، انتصار هو نتاج الجهد والعرق الممتزج بالدم الحر الأبى للإنسان المصرى فى عهده الجديد.. ومساره الصحيح. لقد أعجبنى حسن تنسيق الكتاب.. وما حواه من صور تاريخية ووثائق ومعلومات تجعل القارئ يعيش جو المعركة.. ويقف على حقيقة الجندى العربى.. ومدى أصالته وبطولته.. مما نعتز به ونفخر.. إن المجهود المحمود الذى بذلتموه فى إخراج هذا الكتاب بهذه الصورة الممتازة.. يستحق كل التقدير.. إن المشاعر الرقيقة التى عبرتم عنها لى.. فى كلمات الإهداء.. كان لها أحسن الوقع فى نفسى.. ومع تقديرى لهذه المشاعر.. أبعث إليكم بأخلص الشكر مقرونا بأطيب التمنيات وبمزيد من التوفيق.. فى مجال الصحافة والتأليف.. رئيس جمهورية مصر العربية أنور السادات. وفى الرابع من يناير عام ١٩٧٧م، أحصل على درجة الماجستير فى العلوم السياسية، فأبادر بإرسال نسخة من الرسالة التى تحولت إلى كتاب صدر عن المعهد العالى للبحوث والدراسات العربية للرئيس السادات. ويرد الرئيس برسالة تهنئة تقول كلماتها: تلقيت بالامتنان.. النسخة من الرسالة التى موضوعها.. «المؤسسة العسكرية الإسرائيلية» التى حصلتم بها على درجة الماجستير.. والتى بعثتم بها هدية منكم لى.. وقد نالت الاستحسان وحسن القبول.. لقد تناولتم فى هذه الرسالة.. بالبحث والدراسة المستفيضة.. إنشاء المؤسسة العسكرية الإسرائيلية.. وعوامل تكوينها.. وأهداف هذا التكوين.. والدور الذى قامت به هذه المؤسسة من أجل خلق إسرائيل.. وما أداه العمل العسكرى.. فى كل مرحلة من مراحل تطور المخطط الصهيونى.. كما أبنتم.. بوضوح.. مسئولية هذه المؤسسة فى إنجاز المهمة القومية لإسرائيل.. وكيف أنها أصبحت

مناط أمل الصهيونية فى تحقيق غاياتها.. ومدى سيطرتها على كافة الأنشطة القومية فى إسرائيل. لقد لمست المجهود الكبير.. الذى بذلتموه فى إعداد هذه الرسالة.. وإن حسن تنسيقها.. وتبويبها.. وما تضمنته من أبحاث ودراسة.. ومن معلومات قيمة عن حروبنا الأربعة.. مع عدونا الغادر.. يستحق التقدير، لكم منى أجمل التهنئة القلبية.. على حصولكم على درجة الماجستير.. وأعرب لكم عن أخلص الشكر.. على ما سطرتموه فى عبارة الإهداء من كريم المشاعر.. وصادق الأحاسيس نحوى.. متمنيا لكم كل الصحة والمزيد من التوفيق.. رئيس جمهورية مصر العربية أنور السادات. وخلال زيارة قام بها السادات لمبنى القيادة العامة بمدينة نصر، لمحنى جالسا بقاعة الاجتماعات، وفى نهاية اللقاء مع القادة، اقترب منى فوزى عبدالحافظ سكرتير الرئيس، وطلب منى مرافقته لتحية الرئيس، وسرنا معا حتى دخلنا الصالون الذى يجلس فيه السادات مع وزير الحربية ورئيس الأركان وكبار القادة، فتوجهت إليه فوقف مرحبا، وكرر تهنئته لى على مؤلفاتى ثم سألنى عما إذا كنت قد كتبت شيئا للتليفزيون، فأجبته بأن أحدا فى التليفزيون لم يطلب منى ذلك، فتجاهل الرد، وسألنى عن الكتب الجديدة التى أكتبها، وعما إذا كنت سأواصل البحث والدراسة للحصول على درجة الدكتوراة، فقلت له، إننى أحاول، فتمنى لى التوفيق، وصافحته مودعا، ثم صافحت القادة، وأنا فى طريقى للخروج من الصالون، والانضمام للزملاء من الصحفيين والإعلاميين الذين ينتظرون فى قاعة أخرى مجاورة. وواصلت طريقى بعد انتهاء هذه المهمة وبعد ما يقرب من أسبوعين تلقيت اتصالا تليفونيا من الأستاذ أحمد سعيد أمين نائب رئيس التليفزيون، سألنى فيه مداعبا عما إذا كنت فى حالة خصام مع التليفزيون، ثم واصل حديثه متسائلا لماذا لم أحاول كتابة عمل إبداعى للتليفزيون؟ وسألته بدورى، إيه الحكاية؟ فقال الحكاية باختصار «عاوزينك تكتب ثلاثة أفلام للتليفزيون كل فيلم يذاع خلال سهرة تليفزيونية»، ولمزيد من التوضيح طلب أن تكون القصص عن أبطال وبطولات من أكتوبر، وواصل قائلا، وبرجاء ألا يكون من بينها عمل عن إبراهيم الرفاعى. وسألته، عن الأسباب، فقال: لقد قدم لنا أحد الكتاب قصة عن الرفاعى وتم فعلا التعاقد معه، وعاد ليسألنى، متى سأنتهى من كتابة هذه الأعمال؟ فأجبته، إننى سأتصل به عندما أنتهى من كتابتها، ووعدته بأن الأمر لن يستغرق كثيرا من الوقت. وبعد عدة أيام، عاود الرجل الاتصال بى للاستفسار عما إذا كنت قد انتهيت من كتابة ولو قصة واحدة؟ فسألته،

وما هى أسباب هذا الاستعجال، فقال إن مكتب الوزير يضغط من أجل إنجاز هذه القصص حتى يمكن أن يجرى بثها على شاشـــة التليفزيون خلال الاحتفال بيوم النصر فى أكتوبر القـــادم. وما لم يقله أحمد ســـعيد أمين، قاله وزير الإعلام فـــى مكالمة تليفونية أعقبت هذه المكالمة، فقد أخبرنى أن الرئيس السادات وراء هذا الاستعجال. وعندما ذهبت لمكتب أحمد ســـعيد أمين لتســـليمه القصص الثلاث، طلب منى أن أختار كاتب ســـيناريو لإعداد هذه الأعمال، فطلبت إمهالى عدة ساعات. واتصلت بالصديق المذيع محمد الشناوى الذى أصبح نائبا لمدير إذاعة الشـــعب التى أصبحت فيما بعد القاهرة الكبرى وســـألته من يرشح لكتابة سيناريو ثلاث قصص سلمتها للتليفزيون، فأجاب قائلا: إنه يقوم بتدريس مادة السيناريو بأكاديمية الفنون. والشناوى، هو الصديق الذى ذهب معى إلى محمد الموجى لإقناع حمدى عبيد محافظ كفر الشيخ بعودتى للعمل بعد أن صب جام غضبه على وقرر منعى من العمل صحفيا بالأخبار لأننى حاولت أن أعد تحقيقا صحفيا عن مشـــاكل المحافظة تلبية لطلب من مصطفى أمين. وبعد انتهاء الحوار مع الشناوى اتصلت بنائب رئيس التليفزيون لأطلب منه أن يكون الشـــناوى هو كاتب الســـيناريو. وفعلا تم إنجاز هذه الأعمال تلبية لإشارة أو طلب من الرئيس السادات.

❑❑❑

# الفصل الخامس عشر

## السادات يرفض منح أمريكا قواعد عسكرية بسيناء

حققت مصر انتصارها الكبير على إسرائيل فى أكتوبر ١٩٧٣م، وتمكنت من تحرير مساحة من أراضيها المحتلة فى سيناء بالقوة، ولكن ظلت المساحة الأكبر من سيناء فى قبضة قوات الاحتلال الإسرائيلى.. وأدى الانتصار إلى تغيير جذرى فى موازين القوى، وأدرك العالم أن الهزيمة يمكن أن تلحق بإسرائيل، وأنها ليست بالمناعة التى ظل الإعلام الإسرائيلى يركز على زرعها عالميا وإقليميا.

وبالانتصار استعادت مصر كبرياءها وعانت إسرائيل الانكسار، وتعددت الشروخ التى أصابت كيانها، وتزعزعت ثقة الإسرائيليين فى الحاضر والمستقبل، بل وفى معظم القيادات السياسية والعسكرية.

فى ظل هذه الظروف بدأت الولايات المتحدة تحركا سياسيا ودبلوماسيا لإنجاز اتفاقيات فصل بين القوات المتحاربة، وتمكنت فعلا من التوصل لاتفاقية فصل بين القوات المصرية والإسرائيلية أنهت بها الوجود العسكرى الإسرائيلى غرب القناة.. بعدها توصلت إلى اتفاقية مماثلة بين سوريا وإسرائيل.

ومرة أخرى تنجح الجهود المشتركة لكل من أمريكا ومصر وإسرائيل فى التوصل إلى اتفاقية للفصل بين القوات المصرية والإسرائيلية.. وفشلت كل الجهود لإقناع سوريا بتوقيع اتفاقية مماثلة، وآثرت الاكتفاء بالاتفاقية الأولى للفصل بين القوات التى سبق أن وقعتها، وقرأ السادات الرفض السورى، وأدرك أبعاده وعمق تأثير القادة السوفييت على القيادة السورية.

ولم يكن الرئيس المصرى الذى يتطلع لتحرير كل سيناء المحتلة ليكتفى بما تحقق، وكان على بينة أن مصر لا تملك القوة العسكرية الكافية لتحرير ما تبقى من سيناء، وأن محاولة الحصول على السلاح من السوفييت ستكون باهظة الثمن بعد كل الشروخ التى أصابت العلاقات المصرية – السوفيتية، بعد إنهاء الاحتلال السوفيتى، وأيضا بعد عودة الولايات المتحدة إلى مسرح الشرق الأوسط بعد أكتوبر ١٩٧٣م، وانفرادها بالعمل وإنجازها

الكثير من الأهداف التى تساعد على تخفيف حدة الصراع ودفع الأطراف الإقليمية لإنجاز اتفاقيات أسهمت فى خفض درجة التوتر بين مصر وإسرائيل.

كما أن محاولة الحصول على أسلحة من الترسانة الأمريكية لمحاربة إسرائيل، كان محكوما عليها بالفشل قبل أن تبدأ، أما التحول إلى السوق الأوربية أو غيرها فلم يكن واردا لعدم توفر الموارد المالية الكافية.. وكان الاقتصاد المصرى يعانى من التخلف والجمود ونقص الاستثمارات.. أما المخزون السلعى خاصة القمح فقد اقترب جدا من حافة الخطر.

ولم يكن أمام الرئيس السادات سوى طرق أبواب السلام بقوة لاستعادة سيناء مستثمرا الانتصار، واستعادة الكبرياء، وإدراك إسرائيل وكل القوى العالمية أنها دولة قابلة للانكسار.. ومثل هذه الفترات التاريخية عادة ما تكون قصيرة، بعدها يتسرب الانتصار من أصابع المنتصرين ويفقدونه كورقة هائلة على مائدة المفاوضات.

وفى الوقت نفسه كان الاتجاه للسلام هو الاتجاه الرئيسى للسادات منذ تسلم سلطاته كرئيس للجمهورية، فخلال حديثه مع أعضاء المجلس الأعلى للقوات المسلحة فى أول لقاء له معهم، طالبهم بتحرير مساحة من الأرض شرق القناة، بعدها ستتولى السياسة الباقى.

أى أن الحرب كانت مرحلة يعقبها التحرك على طريق السلام.

وكان السادات يفكر فى خطوة جسورة وغير تقليدية، وبصورة أخرى كان يتطلع لاقتحام السلام، كما اقتحم القناة يوم الهجوم، ومثل هذه الخطوة يجب أن تكون مختلفة وتحمل فى طياتها ما يحقق صدمة تدهش العالم وتدفعه بقوة للعمل من أجل تحقيق إنجاز تاريخى فى قضية الصراع العربى الإسرائيلى، كان يبحث عن قوة دفع هائلة يمكنها تجاوز العقبات التاريخية، والشكوك العميقة لدى كل الأطراف.

وقاده التفكير إلى دراسة زيارة إسرائيل من أجل السلام، كان الإسرائيليون دائما ما يقولون إننا لا نجد شريكا عربيا يمكنه العمل معنا من أجل السلام.

وتساءل: ولماذا لا أكون أنا هذا الشريك، وأن يكون العالم كله شاهدا على قوة عرض السلام الذى يتقدم به؟

وفى سرية تامة بدأت دراسة كل ما يتعلق بهذه الزيارة، تحركت الوفود إلى المغرب وأمريكا ورومانيا وإيران.. وتمت لقاءات بين مسئولين كبار من مصر ومن إسرائيل، منهم موشى ديان وإسحق رابين من إسرائيل وحسن التهامى وكمال حسن على من مصر.

وتبلــورت الفكرة، وأصبحت خطة عمل، وأصبح المســرح معــدا لمثل هذه الخطوة غير المسبوقة فى العلاقات المصرية الإسرائيلية.

وتحولت الفكرة إلى واقع مبهر تجاوز فى إبهاره هبوط أول إنســان على القمر، أى أن هبوط طائرة الرئيس السادات فى إسرائيل تم تشبيهها بالهبوط على القمر.

وكسب السادات بهذه الخطوة الرأى العام الإسرائيلى بالإضافة إلى الرأى العام الأمريكى، وتحولت هذه المســاندة إلى أوراق قوية استخدمها الســادات على مائدة المفاوضات، وبهذه الصــورة يمكن القــول إن الزيارة أحدثت المتغير الجذرى الذى أراده الســادات فيما يتعلق بقضية السلام.

وفى النهاية تمكنت مصر من توقيع اتفاقية كامب ديفيد للسلام عام ١٩٧٩م.

كان السادات يسعى لتحرير الأراضى العربية المحتلة، ولكن القادة العرب خاصة أهل الحكــم والقرار فى كل من ســوريا ومنظمة التحرير الفلســطينية لم يكونوا فى الموقع الذى يجب أن يكونوا فيه، كما أن الســادات يســبقهم كثيرا فيما يتعلق بقراءة الخريطة الدولية وبالنسبة لفهم الواقع واستشراف المستقبل.

وركز الســادات على تحقيق أهدافه لاسترداد كل الأراضى المصرية المحتلة طوال الفترة التى أعقبت انتصار أكتوبر ١٩٧٣م.

ولكن هذا الاهتمام بالمصالح المصرية قوبل بحالة من العداء من جانب أطراف أقوياء مثل الاتحاد السوفييتى ومعظم دول العالم العربى.

فقــد اجتمــع الحكام العرب فى بغداد بعد توقيع اتفاقية كامب ديفيد وقرروا عزل مصر ومقاطعتها والعمل على تجويعها.

وتكشــف الوثائق على ســبيل المثال أن السعودية التى كانت تدعم مصر بمعونات مالية قدرها مليار دولار ســنويا قررت وقف هذه المساعدات اعتبارا من يوم ١٨ سبتمبر ١٩٧٨م، وبدأت فى اليوم نفسه فى سحب ودائعها من البنك المركزى المصرى.

ونفــذت معظم الدول العربية قرار قطع العلاقات ولم يبق بمصر ســوى ســفارات عُمان والســودان والصومــال.. ولم تكتف معظم الدول التى قاطعــت بالمقاطعة، بل اندفعت على طريق العداء لمصر دون أن تتوقف لا أمام الماضى أو الحاضر، أو حتى المســتقبل.. تناســت كل ما قدمته وفعلته مصر وتمادت فى الهجوم عليها.

وإذا مـا أخذنا سـوريا على سـبيل المثال، فقد قبلت أن تتحـول إلى مخلب قط في يد الاتحاد السوفييتى، وكلفت «أبونضال» قائد المنظمة الإرهابية الفلسطينية للعمل ضد مصر، وكانت أولى عملياته، اغتيال يوسف السباعى فى مدخل فندق هيلتون قبرص يوم ١٨ فبراير ١٩٧٨م.

أما منظمة التحرير فاتهمت مصر ورئيسها بالخيانة، وهذه الحملة الشرسة من العداء لم تحل بين السادات وبين مواصلة جهوده لاستعادة الأراضى المحتلة فى سيناء، وفى الوقت نفسه أمر الدبلوماسية المصرية بالعمل لاختراق هذه المقاطعة العربية.

وفى الوقت نفسـه طلب من نائبه حسنى مبارك تحمل مسئولية ملف العلاقات السرية مع بعض الدول العربية المقاطعة.

وتمكـن مبارك من الاتفاق مع المملكة العربية السـعودية فـى يونيه ١٩٨٠م على وقف الحملات الإعلامية.

وحافظت الدبلوماسية المصرية على علاقات سرية مع كل من المغرب والجزائر والكويت والبحرين.

وعندمـا اندلعت الحـرب الإيرانية – العراقية يوم ٢٢ سـبتمبر ١٩٨٠م، بدأت عملية التصدع فى المقاطعة العربية لمصر، فقد ابتلعت القيادة العراقية موقفها المتشـدد من مصر، وبدأت فى طلب المساعدة.. وبدأت صفحة جديدة من العلاقات الوثيقة بين مصر والعراق، وكانت حاجة العراق للسلاح وللخبرة العسكرية المصرية أهم أسباب توثق العلاقات.

وقد أسـند الرئيس السـادات هذه المسئولية، أى مسئولية إدارة العلاقات مع العراق إلى كل من نائبه حسنى مبارك وإلى محمد عبدالحليم أبوغزالة وزير الدفاع والإنتاج الحربى.

وتحمل هذان المسئولان أيضا مسئولية ملف مساندة المقاومة الأفغانية طوال فترة الجهاد ضـد القوات السـوفيتية فى أفغانسـتان، وكانت هـذه القوات قد اجتـازت خط الحدود السوفيتية – الأفغانية فى نهاية ديسمبر ١٩٧٩م.

وأسـهمت حركة الجهاد الأفغانى ضد قوات الاحتلال السـوفيتى فى بناء جسور أقوى بـين مصـر والمملكة العربية السـعودية وعدد من دول شـبه الجزيرة العربيـة، وكل هذه الدول كانت تعمل بالتنسيق مع الولايات المتحدة لدعم منظمات المجاهدين بالمال والسلاح والمتطوعين.

وفى الوقت الذى نشـطت فيه مصر لمواجهة حملات العداء السـوفيتية والعربية، كان على السادات أن يتعامل مع حملات العداء والغضب والتهييج الداخلية ضد معاهدة السلام والتى يقودها كل من القوى السياسـية الإسـلامية وفى مقدمتها جماعة الإخوان المسـلمين والقوى الماركسية والناصرية.

أى أن العداء للسلام والسادات قد جمع بين الإخوان وأعدائهم من الشيوعيين والناصريين.

وتناسـت جماعة الإخوان أن السـادات هو الذى أخرج معظم مسـجونيها من المعتقلين والمسـجونين وسمح لها بحرية العمل، خاصة فى الجامعات والشـارع السياسى للحد من نشاط القوى اليسارية التى لم تغفر للسادات انتصاره على مراكز القوى، أو مجموعة الورثة، بقيـادة علـى صبرى، والفريق أول محمد فوزى، فى معركة الصراع على السـلطة فى مايو ١٩٧١م، ووضعهم خلف القضبان، وطرده للخبراء والمستشارين السوفييت فى يوليو ١٩٧٢م وإنهاء عصر الاحتلال السوفييتى لمصر.

وتصاعدت حملات التهييج ضد الرئيس وأسـرته ونظامه.. ونشـطت القوى الإخوانية فى الهجوم على السـادات ومعاهدة السـلام، وتوالت الاتهامات بالخيانة وبالتنكر لقضية فلسطين.

وبالرغم من مراحل الانسـحاب الإسـرائيلى من سـيناء واسـتعادة مصر لسيادتها على الأراضى المحررة وفقا لمعاهدة السـلام، فإن هذه القوى، واصلت حربها الشرسة المجافية للإنصاف، والمعادية للمصالح المصرية.

وعرف الشـارع المصرى حالة متقدمة من الاحتقـان، وتنبهت أجهزة الأمن المصرية إلى انغماس القوى السياسـية الإسـلامية والجماعات الإرهابية التى ترفع رايات إسلامية فى عمليات تدريب عسـكرى لكوادرها، وتورطها فى عمليات شـراء وجمع وتخزين أسلحة، وبدء وضع خطط لاغتيال عدد كبير من المسـئولين وعلى رأسـهم السادات، وخطط أخرى للاستيلاء على السلطة.

وقدمت هذه الأجهزة للسـادات أشـرطة فيديو مصورة لعمليات التدريب على السـلاح وتقارير عن خطط الاغتيال.

ولم يكـن السـادات الذى قرأ التاريخ جيدا بغافل عمـا يمكن أن يتعرض له على أيدى أعدائـه وأعداء مصر، وكانـت مصادر الخطر متعددة، فهناك الاتحاد السـوفييتى والدول

العربية التى تدور فى فلكه خاصة سـوريا، وهناك القذافى الذى انضم للقوى المعادية لمصر وللسادات. هذا بجانب الإخوان المسلمين الذين سبق لهم اغتيال المستشار أحمد الخازندار لأنـه أصدر حكما على أعضاء بالجماعة لم يرض عنه حسـن البنا، ومكتب الإرشـاد، ثم محمود فهمى النقراشـى، رئيس الوزراء ووزير الداخليـة لأنه أصدر قرارا بحل الجماعة، وعضو التنظيم السرى سيد فايز لأنه كان مصدر إزعاج لقادته.

وفـى فبرايـر ١٩٨١م، قام السـادات بزيارة عدد مـن الدول الأوربيـة، وعندما التقى بمارجريت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا قدم لها سرا تقريرا عن الأخطار التى تهدد حياته.

وقد قدم تقريرا مماثلا للرئيس الأمريكى «رونالد ريجان» يوم ٤ أغسطس ١٩٨١م.

كان السـادات يتصرف وكأنه سـيواجه الموت غدا، ولم يكن الأمر يسبب له إزعاجا، كان على يقين أنه خدم وطنه بكل الإخلاص، خاض حربا هجومية، وحقق انتصارا مذهلا على إسـرائيل، ولم يتردد فى خوض معركة السـلام، وتمكن من الفوز باتفاقية تعيد لمصر سيادتها على كل سيناء.

وحافظ بكل قواه على سـيادة وطنه، ورفـض كل الضغوط الأمريكية من أجل الحصول على قواعد عسكرية بسيناء، رغم أنهم عرضوا تقديم ١٠ مليارات دولار سنويا معونة ثابتة لمصر لا ترد.

كان العرض شديد الإغراء، ولكن حرصه على سيادة مصر كان أقوى من كل الإغراءات، فهو لم يقاتل لإنهاء الاحتلال السوفييتى لمصر والاحتلال الإسرائيلى لسيناء، ثم يأتى ليقبل باحتلال أمريكى تحت مظلة قاعدة عسكرية بسيناء.

ومضى السـادات فى طريقه الذى حدده منذ تسـلم مسـئولياته كرئيس لمصر فى أكتوبر ١٩٧٠م، بثبات وإصرار وثقة عالية بالنفس وبالله وبمصر وشعبها العظيم إلى أن سقط شهيدا صباح يوم الاحتفال بيوم الانتصار عام ١٩٨١م!!!

❑❑❑